# پيريڤان

صدى الهمس المخنوق

**پيريڤان**
**صدى الهمس المخنوق**

سعد العبيدي

الطبعة الأولى : 2025
000-0000-000-00-0
رقم الإيداع 0000 لسنة 2025
القياس : 14×21
عدد الصفحات: 228

دار ومكتبة عدنان

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف

**منشورات دار ومكتبة عدنان**
للطباعة والنشر والتوزيع
العراق - بغداد - شارع المتنبي

© جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواءً أكانت ألكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والإسترجاع، دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

SCAN ME

AdnanPublishing
dar_adnan97
دار ومكتبة عدنان
adnan.publisher97@gmail.com

(جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تُعبّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها)

# پيريڤان

## صدى الهمس المخنوق

سعد العبيدي

2025

دار ومكتبة عَدْنَانْ

# الإهداء

**إلى كل سبايا الإنسانية.**

**منذ أول جرحٍ خطّه التاريخ، وحتى آخر صرخةٍ تختبئ في ليلٍ طويل.**

**إليكنَّ أنتنَّ اللواتي صودرت أجسادكن، وظلّت الروح عصيّة على الأسر.**

(١)

في الليالي الثقيلة من القيظ، حين تتدلّى السماء كغطاء من نار فوق الخيام، يزيح مناوب الحراسة الليلية ستارة خيمة قريبة من العيادة الطبية. يجمُد بصره للحظة: فتاة غارقة في دمها، وطفلاها ممدّدان بجوارها بلا حراك، كأنهما استسلما لنوم أبدي.

يتردّد الهمس سريعًا بين الخيام: إنها إحدى سبايا جند الخلافة، وقد اختارت أن تُنهي حياتها بعد أن أطفأت أنفاس طفليها. غير أن الهمس لا يقدّم جوابًا، بقدر ما يفتح بابًا لأسئلة جديدة، وقعها أثقل من القيظ نفسه: ما الذي يدفع ضحية لأن تتحوّل إلى قاتلة لنفسها وأولادها، هنا بالذات، في مركز يفترض أنه للتأهيل النفسي؟

هل كانت الجدران المحيطة تكتم أنفاسها؟

هل علّمتها الأبواب الموصدة أن النجاة ليست سوى فصل آخر من الأسر؟ أم أن النظرات التي تلاحقها في الممرات، نظرات شفقة تثير الريبة، تذكّرها كل يوم بأنها غريبة لا ناجية؟

الخبر يُسجَّل في تقرير بارد: «انتحار سبية مع طفليها». لكن الدماء الممدّدة على أرض الخيمة تكتب بلغة أصدق: أن حياةً بلا كرامة أثقل من الموت، وأن ضحيةً تُترَك بلا احتضان أو إصغاء قد تتحوّل صرختها الأخيرة إلى مأساة تُدين الجميع.

تقف پيريڤان أمام المشهد مذهولة، كأن الأرض انسحبت من تحت قدميها. أمامها الخيمة التي ابتلعت حياة شابة وطفليها، وخلفها المركز الذي شُيِّد فوق بقايا أوجاع لا تندمل، في محاولة يائسة لرتق جراح المجاهدات المغرّر بهن، والنادمات، والمضحوك عليهن، والضحايا الإيزيديات من السبايا وزواج الإكراه. جدرانه مطلية بألوان باهتة في شقوقها تنزّ دماء لا يراها إلا من عاش المأساة.

تتهيأ پيريڤان لمغادرة هذا المكان، لكن سؤالًا ثقيلًا يعاودها كل مرة، كطَرقٍ متواصل على قلبها: هل يمكن للإنسان أن يعود إلى مكانٍ فقد فيه كلّ شيء، وأن يقبله الآخرون ليعيش بينهم بسلام؟

تشعر أن السؤال أقدم من حياتها: سؤال كل من دُفعوا إلى حافة الهاوية. وكلما حاولت أن تهرب منه، عاد وأمسك بها من كتفيها ليجبرها على النظر إلى الداخل، حيث الخراب أعمق من أن يُرمّم.

تتنفس بصعوبة. ترى نفسها مثل غريق يبحث عن خيط واهٍ في عاصفة، خيط تتشبث به في محاولتها العودة إلى وطنها الموجوع. لكن أي خيط يمكن أن يحمل ثقلها وثقل ما رأته؟

وهل الوطن الذي لفظها ذات يوم قادر الآن على احتضانها، أم أنه سيعيد فتح الجرح الذي بالكاد يلتئم؟

كانت تدرك في قرارة نفسها أن الإجابة قد تكون أكثر إيلامًا من السؤال. ومع ذلك، لم تستطع إلا أن تبقى معلّقة به، تعتقد أن حياتها

كلها لن تبدأ إلا إذا عرفت: هل العودة ممكنة... أم أنها مجرد اسم آخر للموت البطيء؟

لا تشعر بالثقة تجاه خطوتها.

تعرف، في أعماقها، أنها ليست كغيرها.

هي التي تقاوم حتى النهاية، لا تغيّر دينها، ولا تُردّد ما يُطلب منها من كلمات الشهادة، لا في المرة الأولى، ولا في العاشرة، فيُحكم عليها بالسبي، ويُصبح جسدها الغضّ ميدانًا لذئاب الجهاد، يُنقل من مقاتل إلى آخر، انتقالات شرعية موثّقة في ديوان للغنائم، باقٍ من أيام الجاهلية، مُغلّف برداء «الخلافة»، تُشرّعه فتاوى منقوشة على ركام الفقه. لا تعرف من الإيمان سوى السوط والاغتصاب، ولا من الشريعة سوى الرايات السود، وتعطّش الأجساد.

ومع ذلك، تنجح في فصل هذا الجسد المثقوب عن الروح التي تحتفظ في أعماقها، بشيء لا يتمكن أحد من تلويثه عناد أبيها، ذاك الصامت الصلب، الذي يموت واقفًا ويداه مضمومتان على دينه.

تستمر طوال الطريق في الحافلة المتجهة صوب سنجار، الوطن الذي تركته مكبّلًا بغبار الدواعش، يلهث كيمامة يُرهقها التحليق، فتهوي بين مخالب صقرها القاتل.

تجلس في المقعد الأخير، تحت نافذة تغطّيها ذرات التراب المتسللة، تراقب الداخل بصمتٍ خانق. لا تنظر إلى الخارج كثيرًا،

لأنها تعرف أن الطريق من الموصل إلى سنجار وادٍ من الوجع؛ كل شبرٍ فيه موشومٌ بقصة، وكل قرية جرحٍ مفتوح، لم يسعفْه أحد.

يصحى الطفل من نومه في حجرها، يتمايل رأسه الصغير مع اهتزاز الحافلة، يلفّ ذراعه حول خصرها، وكأنه يعرف أن الانفصال عنها، ولو للحظة، يعني التيه من جديد. وبحنان الأم الموجوعة، تهمس:

- نحن قريبون من أرض الأجداد، جئتُ بك إليها كي لا أتحمّل ذنبًا يمزّقني كلّما لفظتُ اسمها أمامك.

ينظر إليها بنظرة فيها معنى، يبتسم، وكأنه يقول: أيّ ذنبٍ تقصدين، إمي؟

تستمرّ الوجوه من حولها صامتة، كأنها في مكانٍ آخر، على حافة ذاكرةٍ ما تزال تنزف.

ويعود المشهد الأول من ذاكرتها البعيدة واضحًا، حيًّا، بدمه وغباره: لحظة دخول الدواعش وسط سنجار، فجأة. لا تحذير، لا صوت صفارات، لا قصف.

صمتٌ من نوع خاص، ثم سيل من الرجال الملتحين، وسيارات تُطلق زعيقًا، تستعرض ذواتها قبل الشروع بعمليات الذبح.

تمرّ بأصابعها النحيلة على ثدييها المنهكين، كأنها تقيس المسافة الزمنية منذ اليوم الأول لسبيها.

طفلةٌ في العاشرة، لم تنبت فيهما الغريزة الأنثوية بعد، وها هي الآن امرأة ناضجة في العشرين، وقد تهدلتا من كثر الرضاعة الناشفة، وعبث الأيادي القاسية لجند الخلافة في أصل الغريزة وتوابعها.

تتذكّر عودتها من المدرسة متأخرة، تتأمل أمها باشتياق الرضيع، وهي تُخرج أرغفة الخبز من التنور، برائحته المميزة. وتتذكّر كيف تحول نظرها إلى الأب، الجالس تحت ظل شجرة التين، يقرأ بصوت خافت، كما يقرأ البوذيون تراتيل التأمل. ثم يأتي الطرق ليس طرقًا، بل اقتحامًا: خمسة رجالٍ مُلثّمين، أقدامهم تدكّ الأرض، خارجين من رحم العتمة ذاتها.

يمسك أحدهم بمقبض الباب، يغرس كفّه الثقيلة في تلابيبها، يسحق الحياة وراءه. يركله آخر بقوة، يتردّد الصدى في الأرجاء، يبتلع أنفاس الأم، ويشلّ حنجرتها.

تبقى واقفة هناك، بين شهقةٍ ونحيب لا يكتمل. تعلق صرخة في حنجرتها، متورّمة، تكاد تخنقها؛ تعرف أن الصرخة ستجلب الدم، كل ذرة هواء في المكان تهمس لها: اصمتي... الصراخ يُغري الضباع.

قدماها في الأرض، مغروسة في وحلٍ من رعبٍ قديم. تشعر بالظلام يتكثّف حولها، تضيق الجدران، ويهبط السقف ببطء، كأنه يستعدّ لابتلاعها.

في تلك اللحظة، لا يعودون رجالًا فقط؛ يصبحون ظلّ المذبحة القادمة، وجوههم ممسوخة تحت الأقنعة، أعينهم ثقوبٌ فارغة، تنهش قبل أن تنظر.

ترتدّ إلى الوراء، تدفع جسدها بجنون نحو حضن أبيها، فيما يقف هو مشدوهًا، وقد تجمد الزمن من حوله، أو أن حواسه جميعها تتعطّل... إلا حاسة واحدة لا تعرف اسمها. هي التي تدفع قدمه اليمنى إلى الأمام خطوة، مرتجفة، لتقول شيئًا نيابةً عن فمه الذي يظلّ فاغرًا دون كلمات. يريد أن يعترض، أن يحتجّ، أن يشتُم، أن يحتضن ابنته، أن يقدّم نفسه بدلًا منها... لكنه لا يُكمل، إذ يصرخ أحدهم:

- من يُسلِم يَسلَمْ!»

ويستمر الأب على هدوئه المريب، كأنه يقرأ نشرة الطقس، ويقول بهدوء، لا. فتسود لحظة صمت غريبة، يتبادل فيها الإرهابيون النظرات.

يقترب أحدهم متحمسًا ويغرز رأس السيف في بطن الأب، تاركًا بقعة دم تتمدّد فوق ثوبه، ومع هذا ووسط الألم النافذ، يواصل بالهدوء ذاته، كأن صوته ينبع من مكان أعمق من الجسد. يتحدث عن أنهم كانوا هنا قبل الإسلام، وظلوا مع إخوتهم المسلمين بعد أن انتشر، وعن دين حافظوا عليه كما حافظ الإسلام على وجوده، وكذلك عن

حياةٍ تمسك بها كلٌّ على طريقته، في عبادة الله الواحد الأحد. راحت كلماته تتساقط مع قطرات دمه، آخر ما يورّثه قبل أن يغادر.

يردّ الآخر بنبرة جافة قائلًا إنكم كفّار، وحكم الكافر الموت أو الجزية، وحكم نسائه السبي.

ينظر الأب باستغراب، يسمع حكاية خرافية، ويقول إن دينه يحرّم الكذب، وإنه كان يستطيع الدخول في دينهم رياءً والاحتفاظ بإيمانه في قلبه، لكنه صدقهم القول، ويعيد ما قال: لا. فيصرخون أنه يسخر من دين الله، فيجيب بأنه يقدّسه بما يكفي ليعرف الفرق بينه وبين من يدّعي التحدث باسمه. وهو يقطر دمًا من يده يؤكد أنه يعرف جيدًا أن الرب ليس لهم وحدهم، وكذلك الجنّة التي خصّها لخَدَمه الصالحين، لا للقتلة.

يتدخّل الأمير وقد نفد صبره، يسأل إن كان يؤمن بأن محمدًا رسول الله. يردّ هادئًا بالقول إن السؤال جاء متأخرًا ألف سنة، ويؤكد أنه يؤمن بأن الله لا يُختصر في رجل، ولا يُحصر في كتاب، ولا يُباع في سوق الخلافة. يجيبه الأمير بأنهم جند الله، فيردّ بأنهم موظّفون في جهنم ينتظرون ترقيتهم بسفك دمٍ جديد، وأن جند الله لا يختبئون خلف أقنعة، ولا يَسْبون نساءً خلقهن الله أحرارًا. يهمس أحدهم في أذن الأمير بأنه لا يخاف على الرغم من جرحه النازف، فيقاطعه بابتسامة باهتة قائلاً إنه يخاف... يخاف أن يعيش مثلهم.

تهوي السيوف، تسقط الكلمة الأخيرة، ويبقى صدى الحقيقة في الهواء أقوى من صوت الحديد.

لا تسمع صوت الدم، لأن ارتطام الرأس المتدحرج على الأرض أقوى من كل صوت.

تركض الأم، دون وعي، نحوها في محاولة غريزية لحمايتها، فينهال عليها السيف بضربة أخرى، يشقّ جبهتها، وتسقط إلى جوار الأب، مختنقة بدمائها. ثم... يتغيّر كل شيء: يدٌ قوية تمسك بها من وسط الذراع، تسحبها كأنها كيس قماش إلى خارج البيت. تتلوّى وتصرخ، صراخًا يضيع في الفراغ، لا أحد هناك ليسمع.

.....

يتوقف تيار الذكرى فجأة، تتعثّر الحافلة عند حفرة على الطريق، يرتدّ جسدها، فتُسحب في لحظةٍ واحدة إلى الحاضر على غير رغبة منها.

تحاول أن تأخذ نفسًا عميقًا، لكن شيئًا في صدرها يرفض التنفّس، فيسألها الطفل عمّا يحدث، فتجيبه بأن الطريق هكذا، موسوم بكثرة الحفر منذ بداية المشوار.

- ومتى بدأ المشوار، يا أمي؟

- ليس وقته الآن. سأقصّ عليك حكايته بعد حين.

تبدو معالم القرى المحترقة على جانبي الطريق مرسومة على

خطوط من الرماد، تعلو التلال مثل أقمشة سوداء متناثرة في يوم عاشوراء. وتظهر الأرض جافة، خالية. أعمدة الكهرباء مائلة، والأفق رماديّ، والزمن متوقف عندها منذ سنين.

تقترب الحافلة من سنجار، وكلما تقترب تزداد ضربات قلبها، الجدران المهدّمة تنتظرها لتعاتبها، والمدينة توشك أن تصرخ في وجهها متسائلة عن سبب عودتها بطفلٍ من ملّةٍ أخرى. تتمتم ببضع كلمات، فيسألها الطفل ماذا تعني «ملّة أخرى»، فتجيبه بأنها لا تعرف الإجابة، لكنها لم تملك إلا العودة، ولا مكان لها إلا ذلك الركام، وذكرى بيت لم يَعُد موجودًا... إلا في قلبها.

تدخل الحافلة أطراف سنجار، تخفُت الأصوات، ويتغير الزمن.

المدينة هناك، خلف سُحب التراب، تنتظر بصمت، أمّ عجوز لا تعرف كيف تستقبل أبناءها العائدين من المقبرة. تبدو مدينة أشباح وحجر وخواء ومنسيّين، وقتلى مدفونين في غير انتظام، وحيوانات فقدت قدرتها على التدجين من كثرة الألم، وجمع من المفجوعين، ودم لم يجف، وموت لم يتوقّف، وبيت لا يخلو من قتيل، ومفقود، وأسير لم يعد حتى الآن.

تحدّق عبر الزجاج، تُمعن النظر، ثم تعود إلى طفلها: هذه ليست سنجار التي حفرتها الذاكرة... هذه مدينة بلا جلد، بلا روح. ألم ترَ شوارعها ترابية لم تعرف يومًا طَعم الإسفلت؟

ألم تشاهد أبنيتها هياكل عظام لقتلى نسيتهم الحروب؟

تسكت قليلًا، ثم تعاود الكلام، لا تريد للطفل أن يسأل. تلاحظ أنه كلما اقتربت الحافلة من سنجار، يُكثر من الأسئلة، فتضيف، بصوت ناعمٍ لكنه حاسم: هنا وُلدت. هنا كبرت. وهنا... خُذلت.

يسأل، بتعجّب بريء:

- لم أفهم، أمي؟

- ستفهم بعد حين.

تشتد يدها على معصم الطفل الذي لا يفهم شيئًا مما يدور. ينظر إليها بعينيه الواسعتين، لا يرى، ومنذ أيام لم ينطق، ربما لم يعرف بعد معنى الوطن. تهمس وتسأله إن كان يعرف معنى الوطن، فيجيب بهدوء أنه يعرفها هي فقط. وربما، في قلبه الصغير، يشعر أنه غير مرغوب فيه حتى قبل أن يفهم ما معنى أن يكون ابن أحد.

ينقبض صدرها، وهي تعود إلى أرضٍ تفتقدها، وإلى هواء يحمل رائحة ترابها، لكنها لا تشعر بانتماء خالص، بل بشعور مراوغ في داخلها، مزيج من دفء الذكرى وبرودة الطرد. هنا جذورها، وهنا تُسأل عن دمٍ لم تختره.

تهمس في داخلها أن هذا الطفل من دم غريب، لكن الهمس يخرج من بين شفتيها أضعف من أن تمنعه. يسمعها ويسأل بقلق ماذا يعني دم غريب يا أمي، فتجيبه أنه دم العدو، دم من داس قلبها.

يقول إنه لم يفهم، فتجيبه بأنه سيفهم بعد حين.

تشعر به يقترب من خاصرتها، ينظر إليها، ثم يُخفي وجهه في صدرها.

يرتجف قلبها. تتذكّر...

كم مرّة فكّرت في أن تتخلّى عنه؟

كم مرّة تمنّت لو أنه لم يُخلَق؟

لكنه موجود، وجزءٌ منها.

ينام على صدرها، لا يعرف من هذا العالم شيئًا سوى دفء جسدها.

ترتج الحافلة فوق حفرة، وتهتزّ معها مشاعرها، فتعاود السؤال الذي راودها في المركز بصمت جارح:

- هل يمكن للإنسان أن يعود إلى مكانٍ يفقد فيه كلّ شيء؟

وتضيف:

- هل الوطن يستعيد مَن يعود إليه، أم يلفظه؟

- هل يمكن أن تكون ابنة هذه الأرض، وأمًّا لثمرة تُغرس بالإكراه في رحمها؟

تعاود النظر من النافذة. تبدو لها سنجار كمن يلتقط أنفاسه الأخيرة: جدران مهدّمة، أشجار مقطوعة، وريح تصفّر، تُحصي الأرواح التي تمرّ من هنا... ولا تعود. مدينة تخونها الجغرافيا، تتنكّر لها الأقوام،

وتبكي عليها السماء.

تركز بنظرها نحو الجهة البعيدة كأنها تذكرت شيئا أو وجدت شيئا تفتش عنه.

***

(٢)

تتوقّف الحافلة وسط مدينة سنجار، أو «شنكال» بلسان أهلها، الاسم الذي كان يُنطق قبل أن يُفرغها جند الخلافة من الحياة. لا شيء هنا يوحي بأن البشر ضحكوا يومًا بين هذه الحجارة.

السائق، بطبعه المتشائم، يتمنّى لپيريڤان «وجودًا خيرًا»... ثم يضحك لنفسه، يعرف أن الدعاء مجرّد بروتوكول أخلاقي في وطن يكثر أهله من الدعاء، وهو على حق.

لا تلتفت إليه. تنهض من على الكرسي، متجهة إلى مكان تخشاه، لكنها لا تملك سواه.

تسألها إحدى الإيزيديات العائدات من رحلة الموت، بنبرة خفيفة يفضحها الفضول: هل هناك أحد من عائلتك في الساحة؟ ألم تخبريهم أنكِ قادمة؟

تهمس دون أن تنظر إليها:

- لم أُبلّغ أحدًا، ولن أسأل عن أحد. هم أنفسهم شكّكوا في نقاوة الدم الذي يجري في عروق ابني. الدم... هذا السائل الأحمر الغامض صار عقيدة، لم يعد يكفي أن تدبّ فيه الروح، يريدون اختباره بميكروسكوب ديني.

تشعر أن العالم الذي تعرفه قد لفظها. حتى المجلس الروحاني

لديانتها، الذي لطالما تغنّى بـ«الاحتواء» كما تحتضن الأرض المطر، تراجَعَ عن احتضانها حين عرف أن الطفل لم يأتِ بصلواتهم المألوفة، وإنما من رحم الخوف وصراخ امرأة لم يُسأل عن إرادتها.

يقولون إنه ثمرة علاقة قسرية مع مقاتل من ديانة أخرى... وهذا عندهم يفسد نقاوة الدم. يتخيّلون أن الدم يُفلتر عبر غربال العقيدة، وأن الرحم لا يلد إلا بموافقة مسبقة من لجان الهوية.

تتذكّر الزوّار الذين جاؤوا المركز قبل شهر باسم الطائفة، لمّا وضعوا أيديهم على قلوبهم وأكدوا أن هذا الطفل لا يُحسب من أبنائهم.

تهزّ الإيزيدية العائدة يديها استهزاءً وتقول:

- هكذا، ببساطة، يُمحى إنسان لأنه لم يولد بختم طائفة أو توقيع مجلس. أيّ إله هذا الذي يفرّق بين الدماء، ويحتاج منّا أوراق اعتماد قبل أن ينفخ الروح؟

وأخيرًا، يبدأ النزول تباعًا. وهي، وإن لم تُبلّغ أحدًا ليكون في الانتظار، كانت تأمل بوجه يعرفها، حتى لو كان موظفًا رسميًا يبتسم بكلمات محفوظة. لكن لا أحد ينتظر. فقط بعض الغبار، وضوء الشمس المائل إلى البرتقالي، ورائحة الخبز والخوف القديمة ما زالت عالقة في الهواء.

تنزل بخطوات بطيئة، كأنها تمشي على قلوب موتاها. تحاول رفع الطفل لتضعه على جنبها كما اعتادت في أعمالها اليومية، لكن

جسده أثقل من ذي قبل هذه المرّة، فاكتفت بمسك يده، وأهمست:

- لقد أصبحتَ رجلًا يا ولدي.

ينظر إليها ويسأل، بعينين نصف حالمتين:

- أيعني... سأحمل بندقية، يا أمي؟

لا... ستحمل قلمًا، يا ولدي.

تتقدّم وإياه وسط صمت الشارع، لا تحتاج دليلًا، الأرض — رغم كلّ شيء — ما زالت تعرفها، وكأنها تهمس لها، بخجل: تعالي... حتى لو لم تغفري لي.

تُسرع في مشيتها، بشيءٍ من التصميم، يجرّها نداء خفي لا تسمعه سوى روحها، يأخذها نحو بيت العائلة، البيت الوحيد الذي تريده، والسقف الأوحد الذي تشتاق إليه، حتى وإن كان محضَ خراب.

تتوقّف لتستريح، تحاول حمل الطفل من جديد، لتخفّف عنه تعب الطريق، لأن جسده الهزيل لا يساعده على الاستمرار طويلًا. تُغمض عينيها، تحاول استعادة خارطة غابت. آخر مرة مرّت هنا كانت في العاشرة، تقفز بين الحجارة عائدة من المدرسة.

تمعن النظر... الشوارع تغيّرت، الألوان انطفأت في الرماد، وفجأة تراها: شجرة وحيدة، مثل جندي تُرك في معركة لم تُذكر في كتب التاريخ. يتسع صدرها بانقباض غامض، والدمع يزحف إلى عينيها.

يسألها الطفل بصوت يقطعه القلق: لماذا تبكين يا أمي؟

تجيبه، كأنها تُخاطب نفسها أكثر مما تُخاطبه: لأن تلك الشجرة ظلّت شاهدة على طفولتي، على لحظات كنت أظنها أبدية. كنت ألهو تحت ظلها قبل أن أصل البيت، قبل أن يناديني صوت أمي من المطبخ، قبل أن يطلب أبي الغداء... كل شيء رحل وبقيت هي، صامتة.

يقول الطفل ببراءة متلهفة: وهل ستأتي أمك اليوم؟ أريد أن أراها.

تتنهد بعمق وتغرس نظرتها في البعيد: لن تأتي يا صغيري.

يستعجلها: لماذا؟

ترد بهدوء ممزوج بألم دفين: لأنها تعيش بعيدًا... حيث لا تصل إليه أقدامنا. يسمّونه «الجنة».

يرفع الطفل رأسه نحو السماء: وأين هي الجنة يا أمي؟

تتأمل وجهه قليلًا ثم تقول: يقولون إنها فوقنا، في السماوات... لكني لا أؤمن بالمسافات. الجنة ليست مكانًا نُسافر إليه، بل حالة نسكنها.

يتعجب: وبماذا تؤمنين إذن؟

تضع كفها على صدره وتتابع بصوت عميق: أؤمن أن الجنة هي سلامنا الداخلي، حين نصالح ذواتنا ونكفّ عن الكذب على أنفسنا. وأؤمن أن الجحيم ليس نارًا في مكان مجهول، بل هو الآخرون

حين يملؤوننا خوفًا وشعورًا بالذنب.

يتردد الطفل ثم يقول: ما زلت لا أفهم.

تبتسم ابتسامة حزينة، تكاد تختلط بدموعها: الفهم ليس مهمًا الآن... ستفهم بعد حين، عندما تبحث عن جنتك أنت، لا عن جنتهم.

.....

تمشي باتجاه الشجرة، تُدير ذاكرتها نحو الجهات القديمة، تُعيد بناء الخرائط التي تهدّمت في عقلها، وتنثر العلامات القديمة حيث استطاعت. وفجأة، تتوقّف، ترفع عينيها، فإذا بها شجرة الجوز — هي نفسها — ما زالت تقف وحدها حارسًا لعالمٍ انقرض. كبرت الشجرة، وما زال جذعها كما هو، بلونه الترابيّ المائل إلى السواد، وتلك الشقوق الطوليّة التي كانت تمرّر أصابعها فيها يومًا، لا تزال هناك ثابتة... كشاهد.

تدفع وجهها نحو قرص الشمس، تتمتم ببعض الأدعية التي تحفظها عن ظهر قلب على لسان أمها. تبكي، ثم تتعهّد أن تمشي إلى معبد لالش.

أن تطلب من طاووس ملك... أشياء تخصّها وحدها.

تلتفت مجددًا نحو الشجرة، تراها في خيالها المتآكل كأنها تحتفظ بصورتها، وهي طفلة صغيرة محفورة في الجذع، طفلة لا تريد

أن تكبر... ولا أن تتلوث. تتذكّر كيف كانت تجلس عند الجذور بعد المدرسة، تراقب ظلّ الشجرة وهو يتمدّد على الأرض، يلامس حقيبتها التي تُخفي تحتها قطعة خبز سرقتها من تنّور الأم، ثم تضحك.

الآن...عبوس لا تضحك. تقترب ببطء من قبر، لا من شجرة. تمد يدها، تلمس الجذع، تحسّه باردًا، ساكنًا... حيًّا، لكن بلا حياة.

تجلس عند الجذر الذي عرّته الطبيعة القاسية، تمامًا كما كانت تفعل في صغرها. لكنها لم تعد تلك الفتاة ذات الجورب الأبيض والحقيبة المدرسية المنتفخة. الآن صارت... أمًّا دون سند، وناجية دون نجاة. تأتي بطفل من رجلٍ لم تعرف حتى اسمه.

تُسند ظهرها إلى الجذع، وتتركه يحتضنها، كما احتضنها يوم بكت لأن زميلتها كسرت قلمها، ويوم عوقبت لأنها رسمت وجه أمها بدل واجب الرياضيات. لكن البكاء اليوم... من نوع آخر: صامت، كثيف، خانق.

يتململ الطفل إلى جانبها، يلتقط بثّ ضيقها قبل أن تتكلّم، يشعر أن صدرها ضاق بالعالم، فيضيق صدره الصغير، ويتلصق بحضنها، يبحث عن أمانٍ غاب بين أنفاسها المتثاقلة.

ترفع بصرها نحو الأغصان، تتأمل الأوراق القليلة، والعصافير التي تجرّأت على العودة بعد الحرب. تتوقّف عند عصفور صغير، ينقر بحذر على غصن هش، تسأله في سرّها: كيف لم يُقطع جذع هذه

الشجرة؟ غريب... بقيت شامخة، دون أن يتّهمها أحد بالكفر؟ كيف نجت؟ كيف استمرّت، وحيدة، تشهد كل شيء... ولا تقول شيئًا؟

توقّف العصفور عن النقر، مال برأسه قليلاً نحوها، زقزق بخفّة، ثم راحت تتخيل صوته يتحوّل إلى كلمات: لأنها شجرة الصمت، والصمت لا يُدان، ولا يُثنى عليه.

شهقت، وشدّت الطفل إليها تريد أن تحميه من معرفةٍ مبكرة، ثم تهمس للعصفور متسائلة عن سبب عودته، وعن غنائه وسط هذا الخراب.

يرفرف بجناحيه برفق، فتتخيله يهزّ رأسه ويقول إنه عصفور النسيان، يغنّي كي ينسى، وإن لم ينسَ يذبل، هكذا هي الحال كل شيء يذبل هنا.

تعيد النظر إليه مذهولة، ثم تهمس وكأنها تخاطب نفسها متسائلة عمّا تفعل. فيجيبها بأنها ما زالت تسأل، ومن يسأل لا يذبل، لكنه أيضًا لا يطير. فتسكت.

لكن السؤال الأخير بقيّ عالقًا، يتأرجح بين الحلق والقلب: ولِمَ لم يُعاقب جذعها، كما عُوقب كل شيء؟

لم تجد العصفور ليجيب، فقالت لنفسها، بصوت مكتوم: ربما لأنها لا تنطق...ثم تابعت: أو ربما — ببساطة — لأنها بلا ملة، لا أحد يقول لها: أنتِ من هذا الدين أو ذاك، ولا أحد يرفض ثمارها، لأن أباها

من دم آخر.

ضمّت الطفل إلى جسدها، أسندت خدّه إلى صدرها، وأطلقت نغمة تمرد هادئة، دندنة تشبه اعترافًا متأخرًا: لو كنتِ شجرة... لما احتجتُ أن أبرّر.

.....

تتابع المسير بعد الشجرة، خطواتها مترددة، الأرض تتباطأ تحت قدميها، والزمن يتوقف لحظة ليختبر ثقلها. الشارع مألوف وغريب في آن، أحجاره في مكانها، لكن الأرصفة شاخت، والنوافذ فقدت لونها وأحلامها.

تتوقّف وتقول بصوت مسموع، دون أن تلتفت: هذا هو البيت.

يسألها الطفل بحيرة: أيّ بيت يا أمي؟

فتجيب، والشرود يملأ عينيها: البيت الذي وُلدتُ فيه... وماتت فيه أحلامي.

يتمتم مرتبكًا: لم أفهم.

فترد مبتسمة بمرارة وحنان: ستفهم بعد حين.

لا لافتة باب، أو حتى عتبة تدل أن أحدًا كان هنا؛ مجرد جدران نصف ساقطة، وسقف متهشّم، وهواء ثقيل برائحة الركام. ورغم كل ذلك...تعرفه من زاوية الرصيف، من الشقّ الطويل في الجدار، من الرعب القديم الذي كانت تخبّئه هناك وهي تلعب.

لم يعُد بيتًا. ملامحه لا تزال كجثّة يُعرف وجهها رغم الاحتراق. تقف أمامه، شهقة دفينة تخرج من داخلها، لا يسمعها أحد. لا تقترب، فثمة عتبة خفيّة تفصلها عن المكان الذي كان ملاذها... قبل أن يصير شاهدة.

تشدّ الطفل إليها، تجعل من جسده الصغير عمودها الأخير. تهمس في داخلها، تسأل نفسها إن كان هذا بيتهم، فيجيب الطفل بصوت مرتبك لا يعرف ماذا يرى. تخطو الخطوة التي تخشاها، تعبر الممرّ الذي تعرفه جيدًا، ذاك الذي كان يؤدّي إلى المطبخ، والمطبخ لم يعد هناك، ولا شجرة التين التي زرعتها أمّها ذات ربيع، فقط حجارة فوق حجارة وأعشاب برّية تنبت بلا إذن فتسخر من الذاكرة.

تمشي أكثر، تصل منتصف الفناء، تشير بيدها إلى الفراغ، وتحدّث الطفل كما لو كانت تحدّث رجلاً، تقول إن هنا كانت حفلاتهم الصغيرة، وهنا رقص أبوها يوم ظهرت نتائج الصف الثاني، وهنا حملها على كتفيه ووشوش لها وحدها بأنها شجرة جوزه الصغيرة التي لا أحد يكسرها. والآن لا أحد يحملها، ولا تبقّت تلك الصبية التي كانت تُحمَل. لكن الطفل يجيبها بصوت أعمق من عمره بأنه سيحملها عندما يكبر.

تجلس على حافة جدار منهار. الحافة نفسها التي كانت تجلس عليها أمها وهي تقشّر البرتقال. تسند ظهرها، تُغمض عينيها، تحاول

استدعاء الأصوات: ضحكات... ملاعق تصطك... رائحة خبز... ثم فجأة: صراخ، طرقات، انفجار، وسيف ينزل ولا يرتفع.

تفتح عينيها، تجد الطفل ينظر إليها بعينين بريئتين ويسأل:

- هل هذا هو بيتُنا؟

لا تجيب مباشرة. تُنزِل عينيها إلى الركام، ثم تقول بصوت خافت:

- هذا ليس بيتنا يا صغيري... هذا قبرهم. وبدايتُنا.

- لم أفهم؟

- ستفهم بعد حين.

بعد لحظة تردّد تنهض، يتراءى لها الجدار الذي أسندت إليه ظهرها يدفعها إلى الأمام. تمسك الطفل بيدها، وتسير نحو ما تبقّى من عتبة الباب، ظلّ الباب. فتحةٌ واسعة تبتلع الضوء... ولا تُعيده. تتردّد ثانية، ثم تمشي. تشمّ في الداخل رائحة التراب المحترق وقد امتزجت بالرطوبة، وبشيءٍ غريب يشبه رائحة الموت المؤجّل.

الصمت مُطبق، حتى الطيور التي كانت تعشّش تحت السقف... تهجر المكان، بقايا البلاط لا تزال مرصوصة في بعض الزوايا، وقطع الزجاج المهشّم تلمع بخبث تحت الغبار. كل شيء يبدو أصغر ممّا تتذكّر:

هل كَبُرتْ؟ أم أنّ المكان تقلّص من الخوف من الحزن من الذكرى؟

يتردّد الطفل في مشيته، كأنّه يحاول ثنيها عن المتابعة. يضغط على أصابع يدها، ويقول:

- إمّي... إنّي خائف.

- لا شيء يُخيف في بيتنا.

- لكنّك قلتِ إنه ليس بيتنا.

- لا أعلم.

- لا أحبّ المكان الذي أخافه، أمي.

.....

تمشي ببطء، تطأ الأرض كما لو كانت تطأ صدور أهلها. تمرّ بغرفةٍ كانوا يسمّونها «غرفة الجد». جدرانها مهشّمة، والزاوية التي كانت تحتفظ بأوراقه وختمه الحديدي تصبح كومة حجارة.

تتوقّف لحظة، وتتذكّر الجد: وجهه النحيل، صوته وهو يلقّنها السور القصيرة، وكيف يربّت على رأسها مؤكدًا أن الدين يبدأ من الداخل، من نظافة القلب قبل طهارة الماء.

تتذكر كيف كانت تردّد خلفه، تحفظ، تكرّر، دون أن تفهم. تظن أن الله يسكن في صندوقٍ خشبي مثل ذلك الذي يحتفظ فيه الجدّ بمسبحته وأوراقه القديمة. تنظر إلى الجدار المهدوم، وتهمس في قلبها: كلّ تلك الأديان... لماذا لم تنقذ بيوتنا؟ لماذا لم تمنع الحروب؟ لماذا علّمتنا الطهارة، ونسيت أن تعلّمنا كيف لا نذبح بعضنا؟

تمضي إلى الغرفة الأخرى، غرفة الأم، هناك... تتوقّف. في الركن الأيسر، صندوق خشبي قديم «صندوق الأسرار» كلّ أسرار الأم: مفاتيح صغيرة، شال مزخرف، ذكرى عرسها، ورسائل الأب حين كان بعيدًا، يشارك في الحرب العراقية الإيرانية.

تندفع نحو الركن. خشبة مائلة تنكشف، وتحتها نصف الصندوق، نصفه الناجي من الحرق، ما يزال هناك. تركع، وقلبها ينبض، يسألها الطفل، بعصبيّة واضحة:

- إمّي، لماذا أنتِ مستعجلة؟ لا أستطيع مجاراتك.

- ليستُ بيدي.

تزيح القطع المتساقطة على عجل. تفتح بقايا الغطاء، وفي الداخل يظهر الشال — رقيق، بلون رمليّ مائل إلى الوردي، عليه تطريز يدويّ تعرفه جيّدًا.

هذا خيط أمّها، وتلك الوردة الصغيرة في الزاوية كانت تطرّزها بخيط غليظ أثقله قصر نظرها، فيما يظل صوتها يتردّد في ذاكرتها أن الزهرة لا بد أن تكون كبيرة، حتى تُفرح من يراها.

ترفع الشال، وتدفن أنفها فيه. تبقى هكذا طويلًا، تبحث عن رائحةٍ لم تعد هناك. لكن التراب يقتل الرائحة... ويقتل كل شيء. ومع ذلك، تبقى رائحة أمّها في خزين الذاكرة: رائحة حنانٍ مستعاد، وصوت تدليل، ولمسة يد، وحروف تناديها: بيري... تعالي، عيوني.

لا تحتمل. تجلس على الأرض. تنهار. يقترب منها الطفل، يسأل هامسًا، وألمه أكبر من سنّه:

ما بكِ يا أمّي؟

ترفع وجهها، يختنق صوتها:

لقد شممتُ رائحة أُمّي.

يتلفّت مرتبكًا، يقترب أكثر:

لكني لم أشم شيئًا... أين هي الآن؟ لم تخبريني عنها من قبل.

تغلق عينيها، تهمس:

إنها عند خدا.

يتسع فضوله، يلحّ:

وماذا تعمل هناك؟

تتنهد، تمسح دموعها بطرف الشال:

إنها قصة طويلة... سأخبرك عنها يومًا. لكن هذا هو شالها.

تكتفي بالنظر إليه، وتُريه الشال، تريد أن يشاركها ما لا يفهمه. تمدّ يدها إليه، تلفّ بقايا الشال الصغير حول جسده، تلمسه بلطفٍ لا يحتاج تفسيرًا، فيبتسم، ترضيةً لها، أمّه الوحيدة في هذه الحياة، كأنّه يقول: لقد أصبح لهذا الشال معنى:

أمٌّ فقدت أمّها... وتهدي ابنها ما تبقّى منها.

وبينما تحتضنه، وتغلق عينيها على بقايا الرائحة، تسمع حركة

خفيفة... ليست من الطفل. صوت كأنّه وقع قدمٍ على الركام، أو همس يخرج من الجدار المهدّم. تفتح عينيها فجأة، تبحث في العتمة. لا أحد... ومع ذلك، شيء ما يتحرّك هناك، في الركن البعيد، حيث لم تجرؤ أن تنظر منذ دخلت.

***

(٣)

تخرج پيريڤان من الغرفة الباردة، بحالتها التي لا تختلف كثيرًا عن سرداب موصد، وتتوجه نحو المكان الذي تقضي فيه أمّها معظم النهار: وسط الدار، مساحة مفتوحة للسماء، كما في البيوت القديمة، لكنّ سماءها تبدو لحظة الدخول متصدّعةً؛ تدخلها الشمس بخجل، تتكسّر أشعتها على الحجارة والركام. هناك، في الزاوية، بقايا التنور... فتحة في الأرض، سوداء من الداخل، تحيط بها جمرات تنطفئ منذ زمن بعيد. وهناك جذوع يابسة، لا تدري إن كانت من بينها شجرة التين.

تجلس في المكان الذي كانت أمّها تفرد فيه عجينة الخبز. تمسح الأرض بكفيها، تزيح بعض الغبار. تنحني نحو الطفل، تهمس في أذنه:

- هذا مكان أبي... الذي فقدته إلى الأبد. هنا كان يجلس عند العصر، يشرب اللبن، ويقول لي: ابنتي العزيزة، إنك لا تشبهين باقي البنات. عندك رأس يابس مثل صخر شنكال.

يرد الطفل هامسًا، وعيناه معلقتان بها:

- إنك فعلًا لا تشبهين البنات، إمي.

تبتسم. لأول مرة منذ تعود، تنفرج شفتاها. لكن الابتسامة تختنق

سريعًا حين يتسلل وجه أبيها إلى ذاكرتها... كيف يبدو شاحبًا في ذلك اليوم، قبل أن يدخلوا عليهم، يقف بجسد نحيل، لكنه ثابت. تتذكّر، بالحرف الواحد، كيف تهوي عليه السيوف. تغطّي وجهها بكفيها وتبكي. تجهش بالبكاء بصوت منخفض، لكنه ثقيل.

تبكي أباها، كما تبكي الشجرة جذورها حين تُقتلع، ثم تتذكّر أمها، تلك التي كانت تحتضنها كل مساء، وتوصيها أن تنام قبل أن يشرد النوم عنها، وكأن كلماتها خيوطُ حريرٍ تُغزل حولها، تمنع الكوابيس من التسلّل إلى وسادتها. ثم تضع رأسها في حضنها، وتغنّي لها همسات لا يفهمها أحد سواهما.

أمّها لا تموت ساكتة. تقاوم، تدفع السيف قبل أن يصل إلى جبهتها، تبصق في وجه الجلاد. ثم يأخذونها بعيدًا.

تغرق عيناها بالدمع. يقترب الطفل، يهمس: إمي، ما زلتِ تبكين.

تردّ بصوت واهن: سأبقى أبكي طوال العمر.

يمدّ رأسه أكثر، صوته مرتجف: قولي لي، لمَ تبكين يا أمي؟

تشهق، وتخفض عينيها: أبكي المكان الذي حلمتُ بالعودة إليه، وها أنا ذا أفقده.

يتراجع خطوة، يضغط على يديه: أنا خائف يا أمي.

تهز رأسها، تبتسم بمرارة: وأنا خائفة أيضًا.

تمد يدها على صدرها، يطلّ وجه أخيها الصغير، رامي، في ذاكرتها: وجه دائري، متّسخ دائمًا من اللعب. تراه يركض حافي القدمين في الفناء، يضحك ويصرخ: شوفي، بيري ! أني أطير! يحبّ الاختباء وراء التنور، ويضحك عندما لا تجدْه. تتذكّر يده الصغيرة حين تشدّ على ثوبها في طريق السبي. وتتذكّر... كيف تُفلت. لحظة واحدة، صرخة واحدة، ولا تراه بعدها.

تبكي بحرقة، تحاول غسل ذنب لم ترتكبه، كأنها إن بكت بما يكفي سيظهر فجأة خلف الركام، يضحك ويؤكد أنه هنا، مختبئًا كي لا تجدَه.

لكن... لا أحد يأتي، ولا أحد يعود. وحدها الريح تعبر الفناء، تعبث بالغبار، وتهمس بلحن يشبه أغنية الأم، نغمة مكسورة وحزينة كانت قد تعلّمتها من جارتها العربية المسلمة. اعتادت أن تغنيها لها كل ليلة قبل أن تستسلم للنوم، والآن، كأن الريح تحمل صداها من بعيد، خافتًا ودافئًا، يهمس من عمق الغياب: نامي يا بنيّتي، نامي.

وخلّيني أحكي حكايتي.

انتِ الورد، وانتِ الروح.

وانتِ الباقي من دنياي وهمّي.

انتِ الفرح، وانتِ النور.

وانتِ الي يخلّي الضيم يصير زهور.

نامي يا بنيّتي، نامي...

تغمض پيريڤان عينيها لحظة، لا تعرف إن كانت تتذكّر... أم تحلم.

تميل الشمس نحو الغروب، تلقي بأشعتها البرتقالية على جدران متداعية، تنير الشقوق، تحاول أن تداويها بالضوء. تجلس پيريڤان على صخرة قرب بقايا التنور، تنفث أنفاسها الثقيلة في هواء غابر، وأمامها... بقايا رماد من زمنٍ سابق، محفوظٌ، لم يجرؤ النسيان على المرور فوقه.

تمدّ يدها، تتحسّس بقايا الرماد وأطراف الطين اليابس، حيث كانت أمها تعجن العجين وتغنّي.

- إمي، أسمع صوتًا. يهمس الطفل.

- يتراءى لك، لا أحد يقترب من بيتٍ تسكنه الأرواح.

- ما معنى الأرواح، إمي؟

- ليس وقتها الآن... ستعرف بعد حين.

.....

تخرج من عالمها الداخلي، فيلوح لها صوت خشخشة من الخلف. تلتفت بسرعة فتراها حمامة تحوم حول التنور، تبحث عن دفء مفقود. تبتسم لها رغم الدموع، وتهمس سائلة إن كانت قد عادت هي الأخرى، وهل تعرف ما حلّ بشنكال.

تميل رأسها قليلًا، وتتخيل الحمامة تُصغي لها. تسألها إن كانت قد رأت صديقاتها؟وهل المدرسة ما زالت قائمة؟ وهل ما زال الأطفال يلعبون في الساحة؟ وأين صار قبر أمها وأبيها؟ تصَفّق الحمامة بجناحيها وتدور حولها. تتنهّد، متخيّلة أنها ـ مثل الآخرين ـ لا تعرف شيئًا. لكنها، على الأقل، ما زالت تطير، بينما هم لم يعودوا يعرفون شيئًا، ولا كيف يبتعدون عن هذا البيت ليطيروا.

تمد يدها نحو الحمامة، تتمنى أن تحتضنها، لكن الحمامة ترفرف مبتعدة ثم تعود لتحوم فوقها. تهمس لنفسها بأنها تفتقد أصوات زميلاتها في المدرسة، وضحكاتهن، وطريق العودة، وحتى صخب المعلمة حين تغضب. تعترف أيضًا أنها لم تتمتع بطفولتها مثل باقي بنات جيلها، ولم تُكملها مثلهن، إذ وجدت نفسها بين ليلة وضحاها امرأة تُساق إلى وحش وتُجبر على الحمل.

ترمش الحمامة بعينيها الصغيرتين، كأنها تخبّئ الحكايا في جناحيها. تهمس برجاء: ألا تذهبي... فالبقاء هنا أهون، والهواء أثقل من أن يحتفظ وحده بالذاكرة.

تقوم من مكانها، تنتقل إلى مكانٍ آخر، ثم آخر. تريد الجلوس على كلّ شبر من البيت، أو ما تبقّى منه. تستقر على الباقي من عتبة الباب، مطلّة على الخارج... حيث الطريق الترابيّ الذي يؤدّي إلى بيت الجيران، وإلى المدرسة، وإلى عالمٍ لم يعد موجودًا.

لا تنوي فعل شيء. أصلاً... ماذا يمكن فعله في حضرة الأطلال؟

غبارٌ يسكن المكان، وريحٌ تعبث بحشائش يابسة نمت في كلّ زاوية.

يحين وقت الغروب... لحظة أبعد من المعتاد، فيها الشمس مترددة في الانصراف عن هذا المكان. تتنهد... تريد أن تنادي على أحد، ولا أحد في البال. ثم تسمع وقع أقدام. ببطء... تلتفت.

فتاة تمشي في الطريق، رأسها مرفوع، ثوبها بسيط، خطواتها بطيئة، وعيناها... فيهما شيء مألوف. تتوقف الفتاة فجأة وتحدق فيها، تمر ثوانٍ، أو ربما عُمر، قبل أن تصيح باسم پيريڤان. تجفل الأخيرة وتنهض كأنها تقوم من حلم، تقترب خطوة وتحاول أن تتأكد وهي تهمس باسم شيرين.

تركض شيرين نحوها، تتعانقان كما لو أن الزمن كله يختزل في هذه اللحظة، ولا يجرؤ أي صوت على اقتحام المشهد غير ارتجاف أنفاسهما. الدموع تسبق الكلام، لكن شيرين تتمتم أخيرًا بصوت مخنوق، بأن أمها كانت تقول لها كلما سألت: من يدري، ربما تعود يومًا، لكنها لم تتوقع أن تكون العودة اليوم بالذات.

پيريڤان لا تجيب، ما زالت تعيش الصدمة، تنظر أولًا إلى أنقاض البيت خلفها ثم تعترف بأنها لم تعد هي نفسها، وأنها تشعر بالتّيه، واقفة هنا بين الحلم والواقع، لا تدري إن كانت هذه عودة حقيقية أم

مجرد مقدمة لتَيه جديد.

يتداخل صوت الطفل وهو يهمس بأن أمه قالت له إنهم سيعودون، ويسأل إن لم يكن هذا بعينه هو الرجوع. ترد پيريڤان بأنها عادت فعلًا، لكن ليتها لم تعد، فيصرخ بأنه لم يخف يومًا كما يخاف اليوم، فتحتضنه مطمئنة أنه رجل البيت الآن.

يهز رأسه متسائلًا عن أي بيت تتحدث، فتجيبه بأنها لم تقصد هذا الخراب.

في تلك اللحظة تمسك شيرين بيدها، بعزم يغلّفه حنان، وتدعوها أن تأتي معها إلى البيت القريب، إلى الغرفة التي كانتا تلعبان فيها معًا، حيث ما زالت تحتفظ بصورهما من المدرسة، مؤكدة أن أمها ستفرح برؤيتها، وأنه ما زال هناك متسع للحكاية... وربما للعب، كما كانتا يومًا.

تهزّ پيريڤان رأسها، هذه المرّة بابتسامة خفيفة. ثم تمشي معها، متعبة، لكنّ خطوتها بدأت تستعيد إيقاعًا بشريًا... إذ تشعر، ولأوّل مرّة منذ زمن بعيد، أنّ الليل قد لا يكون مظلمًا تمامًا.

.....

تدخلان البيت الصغير، يعبق برائحة الزعتر والدخان الهادئ. فيه الأم، سيدة تجاوزت منتصف العمر بقليل، ببشرة مغسولة بالزمن وعيون قلقة. ما إن ترى پيريڤان حتى تشهق:

- يا ساتر يا رب... پيريڤان؟ أنتِ پيريڤان؟

تحتضنها بحرارة شديدة، كأنها كانت تنتظرها منذ عشر سنين دون أن تعترف بذلك. لا تسألها شيئًا، تقول وهي تربّت على كتفها:

- الحمد لله على السلامة يا بنتي، تعالي ارتاحي من التعب.

- هل هي أمك يا أمي؟ يهمس الطفل.

- إنها بمثابة أمي.

- كيف؟

- ستفهم بعد حين.

تنشغل الأم بإعداد العشاء بيدين سريعتين، تخرج الخبز من صندوقه، تضع العدس على النار، وتقطع البصل بلا توقّف. في كل ذلك تتنفس براحة غريبة، وكأنّ حضور پيريڤان يزيح عنها ذنبًا خفيًا، أو يعيد لها ابنة ضائعة.

يجلسن على المائدة: پيريڤان، شيرين، والأم.

يدور الحديث خفيفًا في البداية عن سنجار التي تغيب عنها الرحمة، وعن المدرسة والغرباء الذين يملأون المدينة بشعارات التحرير، وعن الآخرين الذين يطوقونها بلباس المقاومة. ثم، وبصوت خافت لكنه مباشر، تسأل الأم عن هذا الطفل الجميل، وعن الزوج الغائب.

تضع پيريڤان اللقمة جانبًا، تطلب من الطفل أن يتنحى قليلًا.

تنظر في الصحن لحظة طويلة، كأنها تبحث عن ملجأ بين بقايا الطعام. ثم ترفع عينيها ببطء، يعلو وجهها ارتجاف مرير وتقول بصوت متقطع: لقد اغتصبني كثيرون يا خالتي... حتى لم أعد أذكر وجوههم. لا أعرف له أبًا. لم أتزوّج، لم يكن لي خيار.

تحدّق الأم فيها بذهول، فيتسع صدرها بالأسئلة لكنها تخشى الخروج عن المألوف، وتقول مترددة: ألم تسمعي عن السبايا؟

عشر سنين تُقتطع من عمر الإنسانية... وأنا وسطها سبية أُقتل يوميًا مع كل فعل اغتصاب.

يعمّ صمت ثقيل. يهبط على المكان بقسوة.

الأم لا تقول شيئًا في البداية، ثم تتمتم، كأنها تكلّم نفسها بصوت يوشك أن ينكسر: يا خالق النور، استر ما تبقى. ثم تنهض بخطوات واهنة، تسكب الحساء في الأواني البلاستيكية، وتعود لتجلس بين شيرين وپيريڤان. يبدو البيت، ومنذ أن دخلنه، دافئًا. غير أن البرودة الحقيقية لا تسكن الجدران، بل ما يختبئ بين الكلمات، ما يتناثر من جراح لم تلتئم.

وفي لحظة سكون طويلة، ترفع الأم عينيها وتقول، بنبرة تبدو حنونة، يختبئ تحتها شيء من التوجّس والخوف: أخبريني يا ابنتي... ألم يكن دم الطفل... حسب شرعنا؟ يعني...

تتعثّر الجملة في حنجرتها، لكن پيريڤان تسمعها كما لو قيلت

بصوت عالٍ لا يرحم، صوت يقطع ما تبقى من خيوط الأمل.ترفع رأسها ببطء، والعرق يلمع على جبينها تحت ضوء مصباح خافت. تنظر في عيني الأم مباشرة، نظرة ثاقبة. تقول بثبات مُرّ، والشفاه متيبّسة: إن دمه في شرعكم غير نقي؟

تهتز أنفاسها، ويدها ترتجف في حجرها، لكنها تكبح الانهيار، تمنع جبلًا من السقوط داخل صدرها. تتابع، وصوتها يجرح الهواء:

لقد أصمّوا أذني بكثرة الحديث عن الحرام ونقاوة الدم... حتى صارت كلمة «الحرام» وحدها تبعث في قلبي رفضًا وغثيانًا.

تضغط أصابعها على الأرض، تبحث عن ما يثبّت جسدها.

الكل من حولي يصير مفتيًا، الكل يعلم، الكل يدين... لكن لا أحد يسمع، لا أحد يرى، ولا أحد ينقذ.

تسكت لحظة، تنظر إلى الجدار الموحل لتنتقي بعض الكلمات الملتهبة، وتعود بعينيها إلى الأم، تسأل بصوت يتشقق:

ألا تعرفين الحرام الحقيقي، خالتي؟

تتسع الغرفة بالصمت، حيث لا تجيب الأم، فتواصل، وقد ارتجفت شفتاها: الحرام أنهم يبيعوننا في الأسواق رؤوس ماشية... ويجدون من يشتري.

تشد قبضتها على ركبتها، تكاد أظافرها تخترق جلدها: يخطفوننا أمام أعين العالم كلّه... ولا يتحرّك ساكن.

ترفع صوتها أكثر، ودموعها تهبط متسارعة: يعاملوننا سبايا، في القرن الحادي والعشرين. نُغتصب كل يوم... بينما ملايين من حولنا يأكلون، يشربون، ويتناسلون بمتعة.

تنظر إلى الطبق أمامها ودمعة ترتجف في زاوية عينها، تأبى أن تسقط. ترفع رأسها فجأة، يشتد صوتها وهي تهمس أن الحرام ليس الطفل، وإنما النار التي تشتعل في أحشائها كل مرة يعتلي جسدها وحش بملامح بشر. تواصل كلامها مرتجفة، تتذكر كيف يقرأ آية من القرآن قبل أن يغتصبها، ليغلف جريمته بفتوى، ويطمئن إلى أن المواقعة صارت حلالًا. الكلمة الأخيرة تخرج من بين شفتيها، صرخة مكتومة، تتحدّى بها العالم كله وتبكيه في آن واحد.

تشهق شيرين، وتصمت الأم ويشحب وجهها، لا تدري كيف تواجه مرآة تنقلب عليها. أما پيريڤان، فتستمر بأعلى درجات التوتر، مؤكدة أن لا أحد يحق له أن يتكلم عن الحرام إن لم يرَ ما رأته. وتضيف أن شرعهم، وأي شرع في أي دين، حين لا يمسك بيد المظلوم ولا يحاسب ظالمه، يتحول إلى أداة قسوة لا رحمة.

يسود صمت ثقيل، يتراكم في الجو غبارٌ لا يتزحزح. پيريڤان لا تبحث عن تبرير، ولا تطلب شفقة، تحفر كلماتها كمن يقتطع الحقيقة من لحم ذاكرته. والمائدة، التي يُفترض أن تجمعهم على دفء الطعام، تتحول إلى شاهد على انقسام عالمين: أحدهما

ينجو، والآخر لا يعرف للنجاة معنى.

حين ينتهي العشاء، شيرين تكتفي بالنظر إلى پيريڤان، وتُشير برأسها:

- تعالي... خلينا نرتاح، ونتكلّم لوحدنا على انفراد.

.....

تدخلان الغرفة الصغيرة؛ في زاويتها سرير منخفض، وعلى طرفه كومة أغطية ملوّنة. تضع پيريڤان حقيبتها بجانب السرير، ثم تجلس، ظهرها إلى الجدار. تمدّ يدها وتسحب من الحقيبة بطّانية صغيرة ملفوفة، تغطّي بها الطفل الذي ينام.

بشرته البيضاء الناصعة تشبهها، وعيناه نصف مفتوحتين، فالنوم لم يبلغه تمامًا بعد. تقترب شيرين منه، تجلس أمامه، تلمس خدّه بلطف، وتسأله بالكردية الدارجة:

- ناڤت چيه؟

لكنه لا يرد. ترتبك، ثم تغيّر لغتها فورًا:

- ما اسمك، حبيبي؟

يبتسم بخجل، ثم يقول بصوت مبحوح:

- رامي.

- رامي... اسم جميل، يشبهك تمامًا.

تضمّه إليها بخفّة، تحاول أن تنقض حكمًا غير معلن صدر بحقّه

منذ أن وُلد. تمسّد شعره قليلًا، وتغنّي له نغمة قديمة، كانت تسمعها من پيريڤان أيام الطفولة.

تخفض پيريڤان رأسها، دون أن تبكي، لكنها تشرب الأغنية كمن يسمع لأول مرة أن للحياة لحنًا ممكنًا، بعد كلّ ما جرى.

ينام رامي أخيرًا، فتضعه شيرين على السرير وتغطيه بعناية، ثم تجلس إلى جوار پيريڤان، مسترسلة في حديثها عن الناس الذين تشوّشوا حتى لم يعودوا يفرقون بين الدين والعار، بين الغلط والظلم، مؤكدة أنها تفهمها، وأن عشر سنين مرّت على شنكال حملت من الأحداث ما يجعل الكلام صعبًا حتى على أولياء الأمور.

تضحك بخفة وتتابع أن كثيرين ما زالوا يظنون أن أولادهم يجهلون كل شيء، كأنهم يدفنون رؤوسهم في الرمال مثل النعام.

تتنفس پيريڤان بعمق، تنظر إلى شيرين، يرتخي حاجباها وتغيب القسوة عن عينيها، ثم تسألها إن كانت تريد أن تسمع كل شيء، مضيفة أن هناك أشياء لا تُقال أمام البنات غير المتزوجات. تضحك شيرين بصمت وترد أن بنات هذا الزمن يعرفن عن الزواج والسادية الجنسية والاغتصاب أكثر من أمهاتهن، والفضل يعود لليوتيوب.

تمد يدها وتمسك بيد پيريڤان برفق، وتطلب منها أن تبدأ من البداية، من اللحظة التي انطلقت منها الحكاية.

يسود صمت كثيف، يشبه ذلك الصمت الذي يسبق الولادة أو

دفن سر لا يحتمل الضوء. ترفع پيريڤان عينيها ببطء، تتردد لحظة، ثم تهمس بصوت يكاد لا يسمع أنها ستخبرها، شرط ألا تقاطعها.

***

(٤)

ليلُ سنجارَ ثقيل، كما لو أنَّ الجبلَ المحيط بالمدينة يقرر الإنحناء فوقها والضغط على صدرها بصمتٍ حجريّ. المدينة التي يطحنها السلاح، ويعجنها الغياب، وتدمّيها الشعارات والآمال تخرج كل مساءٍ في نزهة كوابيسها. الأزقّة تظلّ مهجورة، النوافذ تُغلق، والأبواب تبقى نصفَ مخلّعة، ما زالت ترتجف من أوّل صفعة تلقّتها على يدِ جندِ الخلافة ذوي الرايات السوداء.

لكنّ الصمت لا يكون تامًّا؛ فدوريات حزب العمال الكردستاني تجوب الشوارع الضيقة بحماسةٍ لا يفهمها أحد. وجوهٌ غريبة، ولهجاتٌ غريبة، وسلاحٌ غير غريب... يعرف الطريق، يتنقّل بين أيادٍ كثيرة، وفي كل مرة يحرّر شيئًا ما. يمرّ المسلحون بثقةٍ زائدة، يحدّقون في الخراب وكأنهم هم من يصمّمونه، يتحدّثون عن الثورة و التحرير، بينما تتدلّى من فوق رؤوسهم لافتةٌ باهتة تقول: «أهلاً بكم في سنجار المحرّرة.

المدينة التي دمّرها الدواعش، يُراد لها أن تُرمَّم بالعسكرة، اعتقادا من أن السلاح إذا يتغيّر اسم أصحابه يتغيّر فعله. ومع انتصاف الليل، بعد أن تُطفأ قناديل الدوريات، ويغيب وقع الخطى، ويخفت كل صوتٍ يحمل في حنجرته بارودًا، يُفسَح المجال أخيرًا للكلمات.

للصوت الذي ينتظر منذ عشرة أعوام.

تتنهد پيريڤان.

تنظر إلى السقف، تفتّش عن بداية ممكنة لهذا الخراب:

يدخلون... خمسة. واحد منهم لا يمكن أن يُنسى، هو أوّل من يرفع السيف على عنق أبي.

تتوقّف، فالكلمات التالية أثقل من أن تُنطق.

يكون رامي، أخي ذو الست سنوات، ملتصقًا بي. أمسِكُ بيده حين نخرج من البيت، يظلّ مذهولًا، لا يبكي... يحدّق في الفراغ بعينين زائغتين، روحه لا تلحق بجسده. أسحبُه خلفي، كي أنتشل الروح من قاع موتٍ محقّق. نكون وسط مئات السبايا، صراخٌ يصمّ الآذان، وغبار يخنق الأنفاس.

نركض معًا... نركل الركام تحت أقدامنا، نتفادى الطلقات، نُكمل دون أن نعرف إلى أين. وفجأة... يخترق أذنيّ أزيز طائرة.

تصيح امرأة في الخلف:

- جاء الأمريكان!

لا تلتفت.

وحين يخيم ظلّ الطائرة، يكون الجمع قد بلغ منتصف الجبل.

يصيح رجل يحمل بندقية أمريكية:

- انبطحوا، إنهم الكفّار!

يتفرّق الجمع...

بعضهم يرتطم بالأرض، وبعضهم يفرّ في كل اتجاه. أمّا أنا، فأواصل الركض نحو سنجار، وفي رأسي فكرة واحدة. النجاة... ثم العودة.

يتعثّر رامي بصخرة على جانب الطريق، فيندفع بجسده الصغير أمتارًا إلى الوراء. ألتفت خلفي... لا أراه. فأصرخ:

- راااامي!

يتبعثر الصوت في الهواء، ويبتلعه الصراخ الجماعي. يختفي رامي، وتدهسه الأقدام كما يدهس الطوفان ورقة. وحين أعاود الالتفات ثانية، تدفعني الأجساد من كل صوب، فأصبح وحدي، تمامًا... وسط سيلٍ من الهاربين لا يلتفتون.

أركض نحو الأصوات، عيناي تمشطان الأرض، لكنهما لا تعثران سوى على فردة حذائه.

يتقدّم إرهابي، يطلق النار في الهواء، ويصرخ:

- ارجعوا!

ولما أقف مذهولة، يضربني بأخمص بندقيته ليجبرني على السير في الاتجاه المعاكس. أحاول أن أسرق من العمر لحظة، أقف فيها على حافة الجبل، أحلّق في سماء سنجار، طائر مكسور الجناحين، عاجز عن الطيران، فتعوضني الروح عن العجز، إذ تمضي محلّقة فوق المدينة، بينما يبقى جسدي هناك، على سفح الجبل، حيث

يغيب رامي.

تنزل دمعة على الخد، لا تمسحها.

تقترب منها شيرين، تهمس بخفة، بأنها تختلف فعلًا عن بنات جيلها. تنظر إليها پيريڤان بعينين غائمتين وتجيب أنها لم تكن سوى نسخة من أبيها.

يسود الصمت لحظة، وبصوت ممزّق يتدفّق الكلام:

تركته خلفي، لم يكن بيدي، لكنه بقيَ هناك... وسط الركام، وسط من لا يُعرف مصيرهم. كلما أخطو خطوة إلى الأمام، أشعر كأني أغادره من جديد. ولا أحد يعيدني إلى من أحب. لا أحد.

تنهار شيرين في نوبة بكاء، تحاول كتمانها، وتقول:

- إنهم ليسوا بشرًا.

تأخذ پيريڤان نفسًا، تحاول به أن تخفّف التوتر الواضح على شيرين.

كل خطوة تنهشني. الإرهابي الأشقر يركلني ببندقيته. أنهض وأسير، وعيوني تبحث في الوجوه.

هل رأيتم طفلًا بعينين عسليتين؟ يحمل حقيبة سبايدرمان؟ اسمه رامي.

يمضي يومان... لا أتذكّر منهما سوى مرارة السير، والوصول إلى مزرعة نشارك الخراف في أكل عشبها. في تلك الليلة، أجلس قرب

امرأة فقدت زوجها وأبناءها الثلاثة وأسألها فيما إذا رأت صبيًا يشبه رامي، فتهزّ المرأة رأسها، وتؤكد أن الصغار في شرائعهم لا يُقتلون... يأخذونهم. يدرّبونهم. يغسلون ذاكرتهم. يقولون لهم إننا كفار... وإنهم مجاهدون.

أرفع نظري ببطء وقد باتت جفوني أثقل من أن تنفتح، وأسأل بصوت طفلة تخشى الإجابة، صوت يختلط فيه الرجاء بالرعب، هل يمكن أن يصبح رامي واحدًا منهم؟ كان السؤال يخرج مني جرح لا يندمل، استجداء وعد يحميني من كابوس يطاردني في كل نفس.

لا تجيب المرأة فورًا. تكتفي بزفرة طويلة وكأنها تخرج من قلبها لا من رئتيها، ثم تقول:

- ربّما... يلبس السواد، ويحمل بندقية أكبر من ذراعيه، يهتف بما لا يفهم... وربما يُؤمر أن يطلق النار على صورة أمّه، فيفعل وهو يضحك.

أشهق بصمت، فتتجمّد الصورة في خيالي: رامي، ببزّة سوداء، يحمل بندقية تكاد تبتلعه، يرفعها نحوي، يصيح بشعارات لا يفهمها، ثم يطلق النار عليّ.

تهمس المرأة بأسى، تكشف حقيقة لا مفر منها، أن نجاتها كانت للجسد وحده، أما الروح فقد تُركت خلفها، أسيرة في المكان الذي لا عودة منه.

تمدّ شيرين يدها، تضغط على أصابع پيريڤان برفقٍ حنون، لا تقول شيئًا... ذاك هو كل العزاء الممكن.

.....

تواصل پيريڤان حديثها بصوت ينخفض فجأة، كما لو كانت تهمس بسرّ لا يحقّ للعالم أن يسمعه. تتحدّث عن أول ليلة بعد الفقد... تذكر أنها تنام في مكان غريب، موحش، تحرسه البنادق ونظرات الخوف. تتوقّف لحظة، فالهواء عالق في صدرها، ثم تستمر فتقول: يجمعوننا في غرفة طينية بلا نوافذ. لا أعرف كم كنّا... وجوه كثيرة، عيون أكثر، وجدران ضيّقة... والليل أطول من عمر المنفى.

تُغمض عينيها، تغوص في ذاكرتها.

في آخر ذلك الليل، يقتحم المكان ثلاثة رجال. أحدهم يبصق على الأرض، يحدّق في النسوة بعيونٍ لا تعرف الرحمة، ويقول بلهجة حادّة كأنها رصاصة:

- سنختار الليلة من ترافقنا إلى الفراش الشرعي.

يتشنّج جسدي، وينكسر صوتي... لا أستوعب الموقف في البداية، ربّما يرفض العقل أن يفهم المطلوب. وفجأة حين تنهض إحدى النساء، تخلع عباءتها، وتغطّي بها وجهي وجسدي، ثم تجلس فوقي، أدرك كل شيء. أفهم طلبها أن لا أتحرّك. أتنفّس كأني نائمة. تلك المرأة مسيحية من برطلة، يقارب سنها الأربعين على الأقل، تتصرّف

كأم تحتضن وليدها... أو كما يبني أحدهم جدارًا أخيرًا قبل السقوط.

لا أعرف ما يحدث بعدها. أسمع ضحكاتهم، أصوات أقدام، أسماء تُنادى، بكاءً مكتومًا... ثم صمتًا كثيفًا، يخنق العالم كله.

تخفض رأسها، تبقى لحظة دون كلام، ثم تتابع، بهدوء لا يُخفي المرارة:

في تلك الليلة فقط أفهم ما معنى أن تكون الأنثى في زمن السبي. لم يلمسني أحد بعد، لكني أشعر كما لو كنت المغتصبة. أرتجف طوال الليل. أتخيّل أشياء لم تحدث... لكنها تعيش داخلي كما لو أنها حدثت ألف مرة.

تدير رأسها نحو شباك صغير، ويمرّ وقت قبل أن تتكلم مجددًا، وتنهال في داخلها الأسئلة: ماذا لو لم أُخفَ؟

هل كنت سأبقى پيريڤان؟

ترتجف شفتاها.

أفكاري تتراكض داخلي، تطارد ظلًّا لا يُمسك... في صحراء لا ظلّ فيها. لا أعرف ما ألاحق، ولا ما أهرب منه. وفجأة، لا أدري كيف، أغفو. فجاء النوم رحمة لم أطلبها... أو غيبوبة تنقذني من لحظة أكون على وشك الانكسار.

تتوقّف عن الكلام، تُسدل جفنيها بصمتٍ ثقيل. تنظر من النافذة. سنجار صامتة، تصغي لها. قمرٌ باهت يعلو الخراب، وريحٌ خفيفة

تلامس وجهها لتواسيه أو لتخفف من أثر الأسى. تُغمض عينيها للحظة، ثم تفتحهما.

تضع شيرين يدها على كتفها، في صمت يشبه شهادة احترام لنجاة لا تُرى إلا في العيون التي ما زالت تحيا رغم الخراب. تميل نحوها قليلًا، يعلو في داخلها رجاء خافت، وتتأمل كيف تبقى پيريڤان هكذا، تمشي وتتكلم وتتنفس وسط الركام؟

ترد پيريڤان بنظرة قصيرة صامتة، نظرة تختزن أكثر مما تحتمله اللغة. يخرج من شيرين صوت مرتجف أقرب إلى البوح بأنها، لو كانت في مكانها، لانتهت منذ زمن بعيد. عندها تتنهد پيريڤان، تنهيدة محمّلة بقسوة التعب، وتقول إن لا مكان للراحة كي ينتهين، وإنهن في تلك الأجواء لا يملكن حتى رفاهية السقوط.

يصمت المكان لحظة، والجدران تحمل ثِقَل ما قيل. تعود شيرين فتهمس، تواسي نفسها أيضًا: پيريڤان، رغم كل شيء، منحتِ وجعك شكلًا مميزًا... حولتِه من جرح إلى علامة باقية. عندها، تغلق پيريڤان عينيها:

يمكن... ومع هذا ما زال في داخلي عواء.

ما زلت أسمع الأصوات، وأرى الوجوه، حتى وأنا ساكتة. تشبك شيرين أصابعها بيدها، وتقول:

- ليس من الإنصاف أن تحملي كل هذه الهموم وحدك... أنا هنا،

وقلبي مفتوح لك.

تواصل پيريڤان، وصوتها يبدو أجوف ومتعب:

بعد أيام... ينقلوننا إلى سوريا. لا نعرف سوى الشمس فوق الرؤوس، لكنها لا تعني شيئًا. والوقت... لم يعد له اسم. نصل إلى مدينة لا تُشبه المدن. لا وجوه فيها، فقط أقنعة، ورايات سوداء معلّقة على كل شيء... حتى على الناس. المدينة صامتة رغم الزحام، وصاخبة رغم الصمت.

يمشي الجمع في صفٍّ طويل من النساء، كل واحدة تحمل شيئًا ثقيلًا... لا يُرى. وهناك... يبدأون «التوزيع» كما تُوزّع الغنائم.

تخفض صوتها، كمن يعترف بسرّ.

ينادون أسماء، أعمارًا... ثم يسحبون كل واحدة نحو رجل يسمّونه «مجاهد»، وحين يأتي دوري، يشير أحدهم إليّ وبأطراف أصابعه: إنها للجورجي.

لا أدري إن كان ذلك اسمه حقًا، لكن حين يحدّق بي وأنا واقفة لا يبدو أنه يرى إنسانة، بل شيئًا يُنتقى من واجهة متجر. يرفع يده من دون تردّد، يشير كما لو أنه أمام سلعة، ثم يحسم الأمر بكلمة واحدة تقول إنني له.

تسقط الكلمة في ذاكرتي، حجر في بئر، تحدث صوتًا مكتومًا، لكنها لا تخرج منه أبدًا. لا أفهم ما يعني «لي»... إلا حين يغلق الباب

خلفه. عندها، أرفع رأسي، أنظر إلى السقف... في عينيّ شيء يلمع، لا يشبه الدموع، إنه أقرب إلى الانطفاء.

تقولها كأنها تشهد على نفسها من الخارج، ثم تواصل:

لا يلمسني مباشرة، لكن عينيه تفعلان. ينظر إليَّ نظرة رجل إلى شيء يشتريه لتوّه، أو يربحه في مقامرة.

يقترب، فيبان مظهره محارب من الزمن الجاهلي، تطفح رائحته كريهة حتى بمقاييس زمنهم الذي يسود سنين.

يناولني قطعة قماش باردة برائحة غريبة، ويشير بذقنه نحو زاوية مظلمة، فيها إناء من ماء راكد، يشبه المستنقع أكثر من كونه ماءً. يهمس بصيغة أمر:

- لابد أن تتنظفي أولًا... ثم تخلعي ملابسك كي ندخل «الخلوة الشرعية».

أمشي نحو الماء، بقلب لا يتحرّك. أمشي، بينما روحي تتجمّد هناك، تراقب المشهد من بعيد، كما تراقب أمٌّ ابن لها يُذبح أمامها، عاجزة حتى عن الصراخ.

.....

يصمت المكان، وتصمت پيريڤان أيضًا، عيناها تصيران فارغتين، تسكنان جسدًا نُزع منه المعنى. تقترب شيرين، تجلس إلى جوارها، وبصوت يكاد لا يُسمع، تسأل:

- پيريڤان... هم يتحدثون عن الشرف كثيرًا، أليس كذلك؟

تبتسم پيريڤان كابتسامة الرماد بعد الحريق، وتواصل حديثها مؤكدة أن لا علاقة للشرف عندهم بالرحمة، فالشرف في شرائعهم لا يتجاوز أن تظل المرأة مستعبدة جنسيًا، لا أكثر.

تتوقف لحظة، لتختبر صدى كلماتها في الداخل قبل أن تطلقها للخارج، ثم تستمر مؤكدة أن الشرف عندنا يختلف عن الشرف عندهم. عندنا الشرف حياة كاملة وليس مجرد كلمة، حياة تُبنى على ما يُصان ويُحترم، لا على ما يُستباح ويُهان. يومها تقول جدتي إن الشرف لا يُختصر بالجسد، وإنما بالنية، بالكلمة، بالكرامة... حتى بالنظرة التي لها وزنها. الشرف أن تحمي، لا أن تملك. أن تصون، لا أن تبيع. أمّا الشرف عندهم يُختزل إلى غشاء... وإن لم يجدوه، يقولون عاهر. من تقاومهم، يسمونها وقحة. ومن تصمت لأفعالهم، يقولون هكذا تكون الطيّبات.

تتنهّد، فقد ثقل الكلام على صدرها:

هم يقلبون المعنى... يجعلون الشرف عضو الذكر موجهًا إلى فرج أنثى. يقولون إنها «ملك يمين»، ويجعلون الشرع عباءة لنيّاتهم، لا لرحمة. يقول الواحد منهم إنه يختلي بها خلوة شرعية... لكنه يشتريها بضاعة، يحدد قيمتها العرض والطلب، ويغتصبها باسم الله.

تنظر إلى شيرين، عيناها حادّتان رغم الهشاشة في صوتها: هم لم

يرونا بشرًا، فقط غنائم، والغنائم لا تُحترم... تُوزَّع، تُستَملك، أمّا الشرف الحقيقي، فهو أن ترى الآخر إنسانًا، لا غنيمة.

تختنق دمعة شيرين، وتقول بصوت مبحوح:

- أنا آسفة.

ترد پيريڤان، بنفس نبرة الثبات، دون أن تلتفت: لا تعتذري... آمل فقط أن لا تنسي.

يخيّم صمت ثقيل، لا يُكسر بسهولة. عينا پيريڤان تصيران فارغتين، تسكنان جسدًا نُزع منه المعنى، وأُفرغ من الزمن. تُسدل جفنيها للحظة لتتجنّب الانهيار الذي لا فائدة منه.

تتسلل نسمة ليلية من حواف الشباك، تحمل معها رائحة تراب مبلل من جهة الجبل. برودة غير مؤذية تنساب في المكان، يد قديمة تربّت على الكتف وتستدعي ذاكرة غابرة. لا تغيّر شيئًا، لكنها تمنح إحساسًا خفيًا بوجودٍ آخر، تهمس بصوت لا يُسمع: أنا هنا، منذ البدء، وسأبقى بعد كل شيء.»

في الخارج، تنبح الكلاب البعيدة، صوتها متقطّع، تستذكر شيئًا فقدته منذ زمن بعيد... شيئًا لا يعود، لكنها لا تكفّ عن انتظاره. تلتفت شيرين نحو النافذة، تتأمّل العتمة، وتتمتم كأنها تخاطب المكان أكثر مما تخاطب پيريڤان:

- ليل شنكال ثقيل... لكنه يسمع.

تفتح پيريڤان عينيها ببطء، تنظر في اتجاه الظلام، وكأنها تبحث عن وجه مألوف أو ظلّ ما:

كل ما في المحيط يتغيّر؛ البيوت، الأسماء، حتى اللهجة تتغيّر... باستثناء هذا الصمت الذي لا يتغيّر. لأن الأرض هنا تحفظ الحكايات... وتنتظر مَن يعيد سردها، بلا خوف.

يعمّ السكون مجددًا. الهواء يصير أخف قليلًا، والليل لا يعود خانقًا كما قبل دقائق.

پيريڤان تحدق في العتمة، لا ترى شيئًا، لكنها تشعر أن الأرض نفسها تنصت، ذاكرة أبدية تحفظ ما لا يُقال. يخرج صوتها همسًا، يكمل حديثًا بدأ منذ زمن بعيد، أن الإنسان أحيانًا لا يعود إلى المكان الذي خسر فيه كل شيء ليجد ما فقده، بل ليختبر إن كان ما بقي هناك يكفي ليبدأ من جديد. ثم يتسلل إلى كلماتها معنى آخر، أن السر ربما لا يكمن في العودة إلى المكان أصلًا، بل في إدراك أن ما خسرناه قد لا ينتظرنا هناك، وأن الغياب ليس دائمًا غياب الأشياء، بل غيابنا نحن، نحن الذين لا نعود حقًا مهما حاولنا.

***

(٥)

يمتد الليل على مدينة الرقة مثل ستارة ثقيلة، يبتلع ما تبقى من الألوان. البيوت غارقة في عتمة تتنفس بالبارود، والطرقات صامتة، تنتظر شيئًا سيأتي. في هذا السكون الموحش يطلّ كوخ «الجورجي»، منحنيًا على طرف الساحة المهجور، يجثم في ظلمتها قبر ينبئ بنهاية الرحمة، يفوح منه عبق الكراهية بوضوح، والريح تتسلل من كل شقوقه. الجدران المبنية من الطوب الإسمنتي ترتعد، ورائحة البارود تغمر المكان، الحرب نفسها تسكب أنفاسها هنا.

تسود لحظة صامتة، كأن كل شيء يتوقف عند عتبة الكوخ. في تلك اللحظة، يعلو من الداخل صوت پيريڤان، يواصل ما انقطع من حكايتها:

ومن بين هذا الركام، أجدني حبيسة جدرانه، أراقب الظلمة التي تضيق عليّ شيئًا فشيئًا. أجلس في الغرفة من دون أن أخلع ملابسي، باقية بكامل الاستعداد. ينفتح الباب بعنف، يدخل رجل طويل القامة، صلب الجسد، جدار لا يلين. يفوقني قوةً، أضعافًا مضاعفة. عيناه جليديتان، لا تشبهان ملامح البشر... كأنهما تخرجان من ليل بلا ذاكرة. أتراجع إلى الزاوية، أرتجف، وفي عينيّ بقايا حياة لم تُطفأ بعد. يقول بصوت مكسور، وبلكنة ثقيلة، يحاول تغليف القبح

بالشريعة:

- لا تتأخري، ولا تترددي... أنتِ لي وسأحصل عليك الآن، هذا شرع الله... وعلينا تطبيقه حرفيًا.

أعجز عن الكلام، يجف حلقي، ينكسر صوتي فجأة، فأجد نفسي أركع عند قدميه، أمد يدي برجاء يائس، وكل ما يخرج مني صرخة متكسّرة تتوسله ألا يفعل، أن يتذكر أنني بعمر ابنته.

يتجمّد لحظة، يحدّق فيّ بنظرة خالية من أي أثر إنساني، ثم يتمتم مؤكدًا أنه الحلال في شرع الله.

أرتبك، لا أفهم كل كلماته، فأعاود التوسل بارتجاف، ولما لم أجد ما ينفع أتساءل إن كان الحلال يمكن أن يكون بالبندقية.

يجيب ببرود أنني رفضت أن أكون مسلمة، فأصبحت سبية، وهكذا يعاملون السبايا، فهذا هو شرع الله الذي نشأوا عليه.

يرتفع صوتي كطفلة خائفة أردد أن شرع الله لا يمكن أن يكون سريرًا، وأنهم يغيّرون الكلام، يقولون عن الحرام حلالًا، ويسمّون الاغتصاب ما ملكت أيمانكم.

يربكه كلامي، لا يعرف إن كان إهانة أم فضيحة، يحدّق فيّ امرأة خرجت عن السيناريو المكتوب لها، ويقول إن كلامي هذا يجلب المتاعب، ويحملهم المزيد من الذنوب.

أواجهه بأن هذا الكلام يجلب لي بعض الراحة، ويُبقي لي لساني

سليمًا كأضعف الإيمان.

يقطب جبينه ويشير بيده محذرًا أنه لو كنت أعرف دينهم لما اعترضت، فأجيبه بثبات أنني صغيرة، لكنني أفهم أن ما يفعلونه ليس دينًا، وأنهم يكذبون على الله.

يقف لحظة، لا يقوى على الرد، ثم يؤكد بحزم أن النساء في شرعهم يُعلّمن الصمت، لا الخطاب.

يقترب، فأحاول أن أقاوم.

أدفع صدره بكل ما تبقى من قوة، أغرز أظافري في جلده، لكنه لا يهتز. يبقى كالصخر، لا يحس، لا يتألم، بل وعلى العكس يُستثار بالألم.

وبسرعة أتشبّث بالكلمات حبل نجاتي الأخير، أسأله بيأس مكتوم إن كان له ابنة مثلي، وأدعوه أن يتخيّلها هنا، في مكاني. لكن كلماتي تتساقط في الفراغ، لا تطرق أذنيه.

يتحوّل داخلي إلى عاصفة: صدري يعلو ويهبط بارتجاف متسارع، قلبي يصطدم بأضلعي، طائر مذعور يبحث عن مخرج. أتشبّث بذكرى وجوه صغيرة: ابنة عمي، صديقتي، حتى دميتي القديمة... كل شيء يصرخ داخلي بأنني ما زلت طفلة، ما زلت أبحث عن حضن، لا عن جدارٍ يطبق عليّ. الخوف يمتدّ في أطرافي كجليد، يجمّدني، ثم يذيبني دموعًا لا تتوقف. أريد أن أصرخ، لكن

صوتي يخونني. أريد أن أختفي، أن أذوب في الجدار، أن أتحوّل إلى هواء لا يُمسك. وفي لحظة خاطفة، تتكوّر روحي في داخلي، تحاول أن تختبئ من عينيه، من قبضته، من هذا الليل الذي لا ينتهي.

يتوقف لحظة. فقط لحظة. يرمش بعينيه، يتذكّر شيئًا بعيدًا، أو ينسى وجهًا قديمًا. لكن الذاكرة لا تنقذ. أنتهي بين يديه دمية مكسورة، يُسقطني فوق فراش عفن، بارد، يشبه تابوتًا رطبًا.

في تلك اللحظة يتبعثر الصراخ، ينسحب الضوء من عيني، ويغور الألم عميقًا، يتجاوز الجسد إلى القلب الذي ينكسر. وحين ينكسر القلب لا تعود الروح كما كانت أبدًا.

أفتح عينيّ بعد وقت لا أتذكر مقداره. الزمن في ديارهم مستنقع أسود، لا يقاس بالدقائق ولا بالساعات، بل بِثِقَل ينهش الروح. وفي هذه الحال، لا أجدني إلا أحسد الموتى... أحسدهم وهم في ظلمة القبر، لأنهم ينعمون بسكونٍ لا يجرحهم بعد الآن.

أفرك عينيّ المرتجفتين، فتتراءى لي ملامح امرأتين بملابس سوداء. ملامحهما غائمة، ظلّان خرجا من حلم مكسور. تقتربان بصمت، وأيديهما تنشغل بتضميد شيء لا أراه، جرحًا غائرًا في مكان ما من جسدي... نزفًا لا أدري متى بدأ، ولا متى يرضى أن ينتهي.

الهواء من حولي ثقيل، يضغط على صدري حتى أكاد أختنق. أريد أن أسأل، لكن حلقي محبوس، مقبوض عليه بيدٍ غليظة. ثم

يأتي الصوت من خلف الباب. صوتهنّ خافت، مشدود بالغضب: لا تقترب منها... أسبوع على الأقل.

تتجمّد الكلمات في مسامعي حكم مؤقت بالهدنة، لا بالنجاة. أسبوع؟ وهل بعد الأسبوع تُعاد المذبحة؟ يغمرني رعب جديد، رعب الزمن الآتي. أفكّر في جسدي الصغير بيت خرب سيُعاد اقتحامه مرة أخرى. أغلق عينيّ من جديد، أحاول الاحتماء بالظلام، طفلة تتخفى تحت الغطاء... لكن الظلام لا يحميني هذه المرّة، بل يعيد إليّ كل الصور، كل الأصوات، كل الارتجافات التي لم تهدأ بعد.

.....

يأتي النهار التالي باهتًا، فيه الشمس تخشى اختراق جدران الخزي. يُنقل جسدي إلى غرفة ضيقة تفوح منها روائح الأعشاب والزيت. نساء مبعثرات في الزوايا؛ بعضهن يُؤدين الصلاة، وبعضهن يُحدّقن في اللاشيء، وقد تخلّت أرواحهن عنهن منذ زمن.

تتقدّم امرأة في الأربعين، ترتدي ثيابًا سوداء فضفاضة، تبتسم ابتسامة مغشوشة. تمسح على رأس طفلة بجانبها، ثم تميل نحوي وتقول بصوت ناعم، مخيف:

- لا تقاومي أكثر يا ابنتي... هذا قدرك في الدنيا.

- كلنا مررنا بهذا الطريق، حتى يتطهّر الجسد من الكفر، وتصفو الروح.

تبدو كواعظة... أو مبشّرة في فيلم هزلي. مشيتها بطيئة، لا تعرف إلى أين تنتمي. وجهها لا يشبه من اختار، يشبه من اختير عنه ورضخ.

أضم ركبتيّ إلى صدري، يتكلم عني الألم الداخلي بالنيابة. تعود المرأة بعد قليل، تجلس أمامي، وهمسها يشبه عرضًا تجاريًا وهي تكرر أن كل شيء يمكن أن يتغير إن قلت الشهادة وأصبحت زوجة، سيكون لي مكانة وحرمة واحترام، وحتى حب إن عرفت الله.

أحدّق فيها طويلًا بعينين لا تعرفان الكره ولا الشجاعة، فقط استغراب طفلة ضائعة تتساءل إن كانت تسمّي ما تفعله حبًا.

تضحك ببرود، وتؤكد أنه ليس اغتصابًا وإنما امتلاك شرعي، وأننا «ما ملكت أيمانهم»، وأن الله يرضى بذلك، ألسنا من سنن النبوة.

أشد قبضتي الصغيرة، ويخرج صوتي مرتجفًا أسأل أي نبي يريد هذا، وأي دين يقول: خذوا الطفلة إلى السرير. أتلعثم قليلًا ثم أتابع ببراءة موجوعة أسألها إن كانت تعرف كيف تلعب الطفلة أو تركض خلف دمية أو تمسك كتابًا، أقول لها إنني كنت أخاف من الظلام، لكن خوفي صار من الباب عندما يفتح.

أصمت لحظة، وبتوتر يفضحني أسألها إن كانت قد جرّبت يومًا أن تكون طفلة؟

أن تركض خلف دمية لا خلف رجل؟

أن تمسك كتابًا لا يدًا خشنة تجرها إلى الفراش؟

أن يكون خوفها من العتمة لا من باب تفتح؟

تصغي لكلامي كله حتى النهاية، ثم تفيض بهدوء، كأنها تلقي درسًا محفوظًا عن أن أسبوعًا واحدًا قد يجعلني أفضّل البقاء معه، وأن بعضهن لم يردن الرحيل لاحقًا بعدما تعوّدن على الحياة الجديدة، على الإثارة، وأمان الروح، وذكر الله.

أقاطعها بصوت ثابت، واضح، متسائلة أين الأمان وأنا أُقتاد كالماشية.

تردّ وهي تخفض صوتها مطالبة ألا أرفع صوتي لأن الروح السوداء تتكلم حينها، فأجيبها بأنه ليست روحًا ولا سوداء بل صوتي، الصوت الوحيد الذي بقي لي.

تحاول أن تمنحني ما تسميه فرصة لأصبح مثلهم، فأرفض وأصرّ أنني لا يمكن أن أصبح ضائعة مثلها.

تصمت، ترتبك لحظة، ثم تحاول إنهاء المشهد متمتمة أنني سأفهم لاحقًا، وأن كل شيء بحكمة، لكنني لا أتوقف وأرمي في وجهها: أن حكمتهم مظلمة، خانقة، لا تثمر.

تشيح بوجهها وتتمتم أن كلامي لا يفيد، ومع هذا لدي وقت طويل لأفكر.

تبتعد عني، وأبقى في الزاوية أراقب النساء: ضحكات مكسورة،

نصائح متناقضة، أجساد تحمل وجوهًا بلا ملامح.

بقيت هناك بجسدي، أما روحي فما زالت معلقة في بيت بعيد، حيث كنت طفلة تحب اللعب بالطين، لا أن تُغتصب فيه.

تمر ثلاثة أيام. لا يلتزم «الجورجي» بوصايا النسوة بعدم الاقتراب في الفراش. يعود بشهوة الكواسر. لا يحتاج إلى اختراق كي يؤلم؛ طرقه تنهش ببطء، وبأساليب لا تقل وجعًا عن الليلة الأولى.

لا يتوقف عن التهديد، ولا تتوقف النسوة عن تسويق «الطاعة» كفريضة لا تكفّر الألم إلا بمزيد من الألم.

أبقى كما أنا، حجرًا في مجرى طوفانهم القذر... لا أنزاح، ولا أنحل.

في صباح اليوم الرابع، يُنادى اسمي. لا أعرف إلى أين، حتى أجد نفسي وسط فناء ترابي، تحيطه جدران ميتة ووجوه مشبعة بالانتظار.

هو هناك، الجورجي، بكامل قبحه. ثوبه الأسود يتدلّى عليه، وفي يده اليمنى كتيب صغير، كتاب الطقوس الذي تحفظه الوحوش عن ظهر قلب.

أقتربُ... أو أُدفع على الأرجح. جسدي الرافض يتخاذل، لكن قدميّ تواصلان المشي.

يقف في الوسط، يفتح صفحات كتيبه، وبصوت جاف يقرأ أمام الجميع:

بسم الله الرحمن الرحيم.

ولاية الرقة

حكم شرعي:

تأسيسًا على عصيان السبية الكافرة پيريڤان لمالكها في الخلوة الشرعية، فقد حكمنا عليها شرعًا، الحكم الآتي:

١. السجن الانفرادي عشرة أيام.

٢. تعطى فرصة أخيرة للتوبة، وبخلافه يقطع رأسها في الساحة ذاتها.

أبو عبيدة النجدي: القاضي الشرعي.

ينظر إليّ الجورجي بعينين لا تحملان سوى الغضب، غضب كثيف يسبق العاصفة. ثم يقول:

- ستنكسرين يومًا... كل شيء هنا ينكسر بأمر الله.

.....

يطرق أحدهم على الباب الخارجي لبيت شيرين، فتتوقف پيريڤان عن الكلام ويغشى وجهها شحوب عابر، كمن يتذكر شيئًا غير مرغوب فيه.

تسأل بعينين قلقتين من الطارق، فتبتسم شيرين ابتسامة متحفظة وتطمئنها أنهم مناضلو حزب العمال الكردستاني، يتولون أمر الحي بعد هزيمة داعش ويفتشون البيوت متى شاؤوا.

ترفع پيريڤان حاجبيها متسائلة إن كان ذلك يحدث حتى والغرف مغمورة بالنوم، فتجيب شيرين أن الأمر غالبًا كذلك، لكنها تضيف بهدوء أنه حين يصلون إلى بيت أهلها يكتفون بقرع الجرس، لأن آمرهم مغرم بها... هو من يقرع الجرس دائمًا. يتظاهر بالتفتيش، لكنه في الحقيقة يفتش عن وجهها. حين تفتح الباب، يظل واقفًا، يحدق، كأنه يحاول حفظ ملامحها ليكتب عنها قصيدة حرب، ثم يومئ لرفاقه بالانصراف.

تضحك ضحكة قصيرة وتشير إلى تلك المرة التي جاء فيها ومعه وردة حمراء يتيمة، نجت من مجزرة، وضعها على العتبة معلنًا أنها للسلام بينهما، ثم غادر مسرعًا كمن يلقي قنبلة ويركض. ورغم هذه المسرحيات الصغيرة لم تبادله الشعور، ترفضه بصمت لأنها تعرف أن قلبها ليس أرضًا مفتوحة للاحتلال العاطفي.

ولأن صوت أهلها لا ينفك يردد في أعماقها أن البيت لا يفتح بابه إلا لأهله، وأنه من غير ملّتها. ومع ذلك، ظلّ القلق يطلّ من عينيها في كل مرة، ظلّ لا ينصرف.

والمشكلة أنها لا تعرف إن كان معجبًا بها فعلًا، أم يراها هدفًا يحتاج إلى حصار طويل. تخشى أن يتحول المستقبل إلى مسرحية إجبارية، تُجبر فيها على لعب دور البطلة الرومانسية في روايته الخاصة، بينما هي لا تريد سوى أن تكتب حكايتها بنفسها.

تغلق روايتها بعبارة تشبه الخلاصة:

هكذا هي شنگال تداور ألمها، وهكذا هو الحب في زمن الحرب، حيث يقال إن لا حب يكتمل في زمن البنادق، فكل زهرة تنبت هنا تُدهس قبل أن تتفتح.

تغير پيريڤان من طبيعة جلستها، تستأذن بمد ساقيها الى الأمام، وتكمل حكاية السجن.

يمرّ اليوم... أم الأيام؟ لا أعرف. هنا، في هذا السجن المظلم، الليل والنهار وجه واحد، جدار أسود يطبق على صدري. لا شمس تعلّمني الصباح، ولا قمر يواسي وحدتي.

عشرة أيام في داخلي صارت دهورًا. لا ساعة، لا نافذة، لا صوت إلا وقع أنفاسي المتقطّعة، وصوت قطرات ماء تتساقط من مكان ما في السقف، ترنّ كالإبر في رأسي.

يُدفع إليّ طبق صغير وقطعة خبز يابسة، مرة واحدة، وكأنهم يطعمون حيوانًا محبوسًا لا إنسانًا. شربة ماء واحدة تترك حلقي عطشًا، ولساني ملتصقًا بسقف فمي.

الجوع ينهشني، وما يؤلمني أكثر هو الصمت الذي يبتلع صرخاتي.

في زاوية الغرفة حفرة صغيرة، أقضي فيها حاجتي، تفضح ضعفي أكثر مما أنا عليه. الرائحة تخنقني، والعار يلتفّ حولي

كحبل لا ينفك.

أحاول أن أعدّ خطواتي ذهابًا وإيابًا، خيط أوهم به نفسي أن للوقت معنى. لكن الخطوات تتشابه، تتكرر حتى أفقد يقيني: هل مشيت فعلًا، أم أنني كنت واقفة طوال الوقت؟

هنا، في هذا الظلام، يبدأ العقل بالخذلان. الصور تخرج من ذاكرتي مشوّهة: وجوه من الماضي، أصوات بعيدة، ضحكات وأغانٍ، كلها تتكسر وتختفي قبل أن ألمسها.

أشعر أنني لم أعد أنا، بل صدى... صدى لإنسانة تُمحى ببطء.

تركَوني جسدًا متألّقًا بالألم، لكني أعرف... أن روحي لم تنهزم بعد.

في الليلة الأولى التي أخرج فيها من السجن، كل موضع في جسدي يحترق، وكل نسمة هواء كالنصل تغرز عصبًا. لكني أستيقظ على شيء آخر... شيء داخلي ينهض.

كنت أظن أن المقاومة صراخ، تمرّد، تحدٍّ... لكن في تلك الليلة، أفهم أن الصمت أيضًا مقاومة، وأن البقاء في حالة وعي رغم الألم... تلك أول بدايات المقاومة.

تقترب خطوات خفيفة، تجلس المرأة السوداء خلفي، وفي يدها قطعة قماش تفوح برائحة الطين، ووعاء فيه معجون بلون الأرض. تدهن التقرحات التي بدت على ظهري إثر النوم على أرضية السجن الصلبة. يأتيني همسها تساؤلًا عن سبب ما أفعله بنفسي، ولماذا

أختار الألم. أجيب بصوت مبحوح من التعب أني لا أريد أن أكون جدارًا آخر في هذا المكان، ولا أن أتآلف مع القيد.

تتنهد، وتخبرني أن كثيرات سبقنني، بعضهن فشلن، وبعضهن اختفين، ثم تضيف بصوت يشبه الأمل الميت: أن لا مفر من هذا الجحيم إلا بالإيمان، وتختم همسها كوصيّة أخيرة بأن أكون مؤمنة.

ترتفع زاوية فمي بابتسامة غريبة.

تنهض وتتركني هناك، في العتمة، مع ظهر ملتهب... وروح بدأت تتعلم أن تُخطّط. وبينما الصمت يملأ الغرفة، أتساءل في سرّي: هل يمكن أن يأتي اليوم الذي أعود فيه إلى مكان فقدت فيه كل شيء؟

لم أعرف الإجابة في وقتها... ومع هذا أعرف أن قلبي، مهما خسر، ما زال يحتفظ بما يكفي ليقاوم.

وفي تلك اللحظة، بين اليقظة والنعاس، لمحت ظلًّا يعبر ذاكرتي، ظلًّا لا أميّز إن كان حلمًا أم نبوءة. وجه غائم يلوّح من بعيد، وصوت خافت يهمس: ستعودين... لكن العودة لن تكون كما تتخيلين.

***

(٦)

الليل السابق ما بعد السجن يترك عبئًا لا يزول، ويجيء الصباح بوجه غريب جديد، لا يشبه ما قبله. الجورجي يعود في أوله، بنظرات هادئة على غير عادته، ويقول بصوته الخشن وهو يربط حقيبته السوداء أن لديه مهمة خارجية... ثلاثة أيام فقط، طلب بحزم عدم التصرف بغباء.

يتوقف لحظة وينظر طويلًا، ثم يخرج دون أن يلتفت.

بمجرد مغادرته يبدو المكان مختلفًا، والوجوه أكثر ارتخاء، والهواء أقل توترًا. لم يعد هناك من يراقب مباشرة، لكني أشعر أن العيون ما تزال تتابعني من خلف الجدران. مع حلول المساء أسمع همسات قرب مخزن السلاح؛ أصواتًا بالعربية الهجينة ولهجات غريبة. أحدهم يشرح خطة لنقل ذخيرة، وآخر يطلب تسريع تسليم «فتاة جديدة» لـ «التدريب الخاص». عندها أدرك أن ما أعيشه ليس استثناءً.

أقتربُ من المخزن القديم، الحراس منشغلون بتدخين شيء ذي رائحة نفّاذة. قربه غرفة صغيرة نصف بابها مفتوح. أدخل بتردد، فأجد في الداخل صناديق أدوية، معدات طبية، وصورًا لمواقع عسكرية على طاولة حديدية. أدرك أن هذا ليس مجرد معسكر، وإنما قاعدة خلفية لشيء أكبر.

حين يحل الليل يظهر رجل مسنّ لم أره من قبل. يبدو من أهل المنطقة، من أولئك الموسومين بالعزلة. يقف بعيدًا ويقول بهدوء:

- أنتِ لستِ النهاية... ربما تكونين البداية، قد تعودين إن كنتِ أذكى منهم.

ثم يختفي.

أعود إلى البيت، وأنام وحدي، أخيرًا... دون ألم.

مع أول ضوء يدوي إطلاق نار في الجانب الجنوبي. يهرع الجميع، وأستغل الفوضى لأتسلل بين البيوت والخيام. أرى فتاة صغيرة تُدفع داخل غرفة مغلقة وهي تصرخ بحرقة. أهمّ بالتدخل، لكنني أتوقف، فالشجاعة تخونني هذه المرة.

أجلس تلك الليلة قرب نار خامدة، وأحدث نفسي بصوت خافت:

لو عدت لانتظار الجورجي... أضيع، وإن غادرت الآن وسط هذه الفوضى... ربما أموت، وأنا أحاول.

أغمض عينيّ وأقرر أن الليلة القادمة لن تمر دون محاولة هروب. لا أعرف إلى أين أمضي، كل ما أعرفه عليّ أن أمضي.

أتسلل بعد منتصف الليل، حين تخفّ الأصوات في المعسكر، وينشغل الحراس بإعادة تعبئة مخازنهم واحتساء الشاي الثقيل، وتدخين ذلك الشيء الغريب. لا أحمل في عقلي خطة، ولا أرسم

طريقًا، ولا آخذ طعامًا أو ماءً. أدفع نفسي فقط بغريزة الخلاص.

أركض بين أشجار جافة، وأعبر ممرًا ضيقًا خلف خيمة الحراسة الشرقية، ثم أسلك طريقًا لا أعرفه، دون أن ألتفت خلفي. قلبي يدق في أذني، ودمي يغلي في صدري، مدفوعة بالهرب من شيء لا أقدر حتى على تسميته... ليس من «الجورجي» وحده، وإنما من نفسي، من جسدي الذي لم يعد لي.

أختبئ تحت صخرة حين أسمع وقع أقدام.

تمرّ مجموعة من الحراس، يتحدثون عن أمر لا أسمعه بوضوح.

أنتظر حتى يبتلعهم الظلام، ثم أتابع السير:

آه، كم هي طويلة بقايا الليل حين يكون الإنسان مُطارَدًا، والظلام لم يعد يحمي.

أكاد أتعثر أكثر من مرة. شوكة تشق قدمي، وضبع بعيد يعوي فيجعلني أرتجف. لكني لا أتوقف، أمشي على غير هدى، كمن يفرّ من نار تلاحقه. ومع ذلك، وفي لحظة ضعف، أتوقف عند صخرة على طرف تلة. أجلس عندها، أسند رأسي إلى طرفها، أتخيلها حضن أمي فتأخذني الغفوة.

لم أعرف أنني نمت... إلا حين أيقظتني الشمس بوخز أشعتها العنيدة.

أفرك عينيّ لأنظر أمامي. خيام المعسكر ما تزال تُرى من مكانها...

لم أبتعد كثيرًا. كيلومتران فقط، أو أقل.

أضحك ضحكة مُرّة، ثم أقرر السير باتجاه الشمس، نحو الشرق... قرار قد يكون للاستقواء بها، فأدرك من بعدها أن الخلاص ليس قرارًا فقط، وإنما حرب ضد جسد قد ينهار حين تشتدّ الحاجة إليه.

أمشي لساعات. قدماي تخذلاني، ولساني يتدلى من شدة العطش. أسأل نفسي بغرابة:

لماذا لم أفكّر في الماء؟ لماذا لم أحمل زادًا؟

ثم أجيبها بيأس: لم أظن أنني سأعيش كل هذا الوقت.

أجلس، أو ربما أسقط. يصعب التمييز في مثل تلك اللحظات. جسدي جاف، تنفّسي ثقيل، والشمس التي استنجدت بها تبدأ في سلخ جلدي. يداي ترتعشان، ورأسي يدور.

ألمح شيئًا يلمع في الأفق، صعب تبيّنه أول الأمر. أقتربَ... إنها سيارة حمل صغيرة، «بيك أب»، عليها رشاش قديم. تتوقف بحزم، وينزل منها شاب بلحية مشعثة، يرمقني بنظرة سريعة ويقول بصوت خافت:

- پيريڤان؟

أدرك أنه يعرفني.

أغمض عينيّ، وأتمنى لو أنني متّ قبل هذه اللحظة.

يسحبني إلى السيارة، دون مقاومة، أرمي رأسي على كتف المقعد

الخلفي، والعرق يملأ عينيّ. وحين ندخل المعسكر، يبدو كل شيء كما تركته...الليل لم يحرّك شيئًا سوى قلبي المثخن بالجراح.

يدخلون بي غرفة السجن إياها، حارة، رطبة. يقول أحدهم:

- ننتظر الجورجي، يعود غدًا.

أجلس في الزاوية، أنظر إلى قدميّ... وأتذكر أني حاولت. ورغم كل شيء... حاولت. أتخذ وضعًا في الزاوية، أراقب نفسي وهي تصمت، تحاصرني أسئلة لا مفرّ منها:

هل فشلت؟

هل كنت ساذجة حين ظننت أن الهروب ممكن؟

هل الأرض تميل تحتي، أم أني من يتأرجح بين الوهم واليأس؟

يمرّ يوم... وربما يومان. لا أحد يسأل، ولا أحد يقترب. تدخل عليّ فتاة يانعة، بصمت مريب. لا تتجاوز العشرين، ترتدي عباءة داكنة وحجابًا ثقيلًا، وفي عينيها ضوء غريب. تضع أمامي كوب ماء وقطعة خبز يابس، وتهمس:

- اشربي قبل أن يأتي أحد.

- من أنتِ؟

- قصتي أقرب إلى قصتك بالمعنى. كان اسمي جورجينا... الآن أمينة. ومع هذا، ما زلت أسمع جورجينا بداخلي.

- يعني... أسلمتِ؟

- فعلت ما كان يجب لأبقى. ومع هذا أجد نفسي نصفين. نصف يسير في النهار كداعشية مجاهدة، يرفع الشعار ويؤدي الطاعة، حتى يكاد يصدق ما يردده، ونصف آخر يبقى في الليل، دنماركية وديعة اسمها جورجينا، تمسك فنجان قهوة وتتأمل نافذة تطل على بحر بارد.

في النهار يخمد الصوت، تطمس ملامحه الشمس. وفي الليل يصرخ الكائن القديم بي، يطالب بالخروج من جلده، بالعودة إلى الاسم الأول، إلى الدين الأول، إلى الحياة الأولى. لم أعد أملك قوة الطرد ولا قدرة الاحتفاظ. أنا عالقة بين اسمين ودينين وشخصيتين في حضن واحد؛ حضن ضيق وضعوا تحته جمرة وأطبقوا عليه من كل اتجاه. وكل يوم يزداد الدخان في صدري، حتى أختنق قبل أن يحترق الجمر.

كلماتها تسقط كحجارة صغيرة في ماء بحيرة هادئ، وتُحدث دوائر متسعة في قلبي.

تعود لاحقًا... ثم لاحقًا. في كل مرة تخبئ شيئًا صغيرًا، تمرات قليلة، ماءً نظيفًا، قطعة قماش مبلولة، تحاول أن تردم صدعًا هائلًا بهذه الفتات. وحين تقترب أكثر، يأتيني صوتها همس يتسرب إلى أعماقي: لا تجعليهم يكسروك. حتى لو لبست ما أرادوا، حتى لو قلت ما طلبوا، أبقي لك شيئًا لا يلمسه أحد. شيئًا يخصك وحدك.

أتخيلها بين خيامهم واحدة منهم، وبعيدة عنهم قديسة. أحبها... وأخافها في آن واحد. وأتخيل في الليل أن «طاووس ملك» هو من أرسلها مكافأة لصبري. أردد بيني وبين نفسي:

ربما النجاة ليست دائمًا صراخًا أو فرارًا.

ربما تكون أحيانًا قدرة على التكيّف دون الاستسلام.

لكن الخوف يسكنني... خوف من الغد، من عودة الجورجي، ومن القرار الذي ينتظرني مثل فخّ مفتوح.

.....

يعود. أعرف أنه لابد وأن يعود، لكني لا أعرف بأي نسخة سيعود. أفتح عينيّ حين أسمع خطواته الثقيلة. مشيته مميزة؛ تتأذى الأرض من وقعها. يفتح باب السجن بعنف، عيناه تطفحان بالشر، ولا يقول شيئًا.

ينقضّ عليّ، يمسكني من شعري ويسحبني كما يُسحب جثة عدو نازفة. كأني شيء، لا جسد، لا إنسانة، مجرد كومة خطيئة جاء ليغسلها بعنفه الوحشي. يضربني بقبضته على وجهي. يركل بطني. يصفعني مرات... حتى أفقد القدرة على العد. أنفاسي تتقطع، وصوت جسدي وهو يرتطم يصير صوت المعسكر بأكمله. أحاول أن أقاوم... ثم أنهار. أصرخ... ثم أسكت. وحين ينتهي أول مرة، يعود من جديد، فالوجع لم يكن كافيًا بعد.

ثم يتوقف، يلتقط حبلًا سميكًا، يربطني إلى عمود وسط البيت. رأسي يتدلّى، جسدي نصفه ينزف، والنصف الآخر ينتظر. يقف أمامي، ينزع بعض ما عليه من عتاد الحرب، ويبدأ فعلته. تأوهه الوحشي يصل إلى خارج الغرفة، يسمعه الحراس... ولا أحد يقترب.

وحين ينتهي، يشعل لفافة تبغ، ينفث دخانها ببرود يلفّ المكان غيمة رمادية ثقيلة. يتركني أختنق تحت وطأتها، امتدادا لقسوة يده التي قيدتني قبل قليل. يصلني صوته بلا التفات، جارحًا: كي لا تفكّرين بالهرب مرة ثانية.

يفك قيدي، ويسحبني إلى الغرفة... يريد «إعادة تشكيلي»، لأن أبدأ من جديد ظلّ امرأة مؤمنة. أتعثر في الطريق القصير، أوجاعي فوق طاقتي، تخرج من جسدي وتبقيني هناك، مذهولة، شبح يمشي، يراقب.

أتخيل صوت أمي، وصوت الجبل... سنجار الذي لم أعد أراه. أتمنى لو أنني مت عند العمود، لكني لا أموت. وهذا أقسى ما في الأمر. ما يفعله تدريبًا شريرًا على العيش بينهم بلا روح.

لا زمن هنا يمكن قياسه. كل ما يتبدّى لي في تلك اللحظة أن الضوء يتسلّل إلى البيت في خيوط مغبرة...تتكسر في الهواء الحار وتلتف حولي شرانق من غبار، وان العالم في الخارج يبدو بعيدًا، وأنا مدفونة في هوّة من التراب... هوّة جافة لا صوت فيها، إلا نبضًا بطيئًا

يطرق داخل صدري.

أتوسد الأرض، عاجزة عن النهوض. الحرارة تلتصق بجلدي، وثقل النهار يضغط على صدري، يخنق أنفاسي. جفناي ثقيلان، لا أقوى حتى على فتح عيني.

ثم يجيء إلى أذني همس ناعم، رقيق، كأن الهواء نفسه بدأ يتكلم:

- هيا... اسمعيني.

لا أقوى على رفع رأسي، لكني أعرف الصوت... صوت أمينة، النازل من السماء في لحظة عطش. خطواتها خفيفة، مترددة، تحمل خوفًا مصمّمًا لا يلين. تجلس قربي، وتخرج من كُمّ عباءتها قطعة قماش مبللة، تضعها على وجهي. البرودة الخفيفة تنسل إلى جلدي، رحمة صغيرة في قلب الجحيم: لا تموتي يا عزيزتي... ما زلتِ طفلة.

أفتح عيني بصعوبة، الصورة أمامي مشوشة، لكنها أقرب ما يكون إلى الحنان.

- لماذا تجازفين بحياتك وتأتين؟ أقولها كمن يسأل الحياة عن سبب استمرارها.

تردّ بصوت يشبه صلاة باكية:

- لأنني إن لم أفعل... سأكون مثلهم، بلا شعور. لقد تعلّمت كيف أعيش بين أنيابهم، دون أن أتحوّل إلى واحدة منهم.

أنظر إلى وجهها، ما تزال تحتفظ ببقايا جورجينا... تلك الفتاة التي كانت ترقص في حفلات الزفاف، وتؤدي التراتيل مع أقرانها في الكنيسة. اليوم لم يبقَ منها سوى ظل هادئ، ظلّ لماضٍ يختبئ في عباءة نجاة.

أتساءل داخليًا كيف لنا أن نعيش، فينزل الجواب عليّ كما لو كان درسًا للبقاء: عيشي... تنفّسي... انتظري حتى تكبرين من الداخل. لا تدعيهم يسرقون فكرتك عن نفسك. حتى لو أخذوا الجسد، لا تعطيهم الروح. وكل يوم يمضي وأنتِ على قيد الحياة، هو يوم يخسرونه.

لا أفهم تمامًا... لكن كلمات أمينة تسقط في روحي كقطرة ماء في فم عطشان تحت شمس لا ترحم.

في تلك اللحظة، لا يبدو البيت عقابًا، بل مكانًا تُبنى فيه مقاومة صامتة. جذور تنمو في أعماق أرض يابسة تبحث عن منفذ نحو النور. عندها أتيقن أن أمينة منقذة خارقة، محطّمة مثلي... قررت أن تترك شقوقها مفتوحة... ليدخل منها الضوء، لا العفن.

....

في تلك الليلة لم يأتِ الجورجي، بدا منشغلًا بمهمة خارج المعسكر. كان جسدي ما يزال يئن من الليلة السابقة، وقلبي يتهيأ لما قد يأتي. وبدلًا منه دخلت أمينة... هادئة كعادتها، حتى صار

هدوؤها مألوفًا وأنفاسها. جلست قربي، وضعت منديلاً مبللًا على رقبتي المتورمة، ثم أطلقت نظرة طويلة، تقرأني من الداخل.

عرفتُ قبل أن تتكلم أن لديها ما تقوله: الأصعب من الألم أن يتحوّل إلى روتين. أن تنتظريه كل ليلة بالملامح ذاتها، بالصوت ذاته، بالوقع نفسه، حتى يغدو بوجه واحد لا يتغير.

تسكت قليلًا ثم يتسرّب صوتها ثانية: في الأيام الأولى كنت أصرخ مثلك. أدعو، أتشهد، أترجّى الموت. ثم اكتشفت أن الألم نفسه يتغيّر حين أنظر إليه بطريقة أخرى.

تبتسم ابتسامة حزينة، وتدعني أتبنّى فكرتها: أتعامل مع الألم كأنه مخلوق غريب، شيء خارجي، لا علاقة له بي. حين يضربني أو يأخذ جسدي، أهمس لنفسي: هذه لست أنا، هذا مجرد جسد، والروح تصعد فوق الألم لتراقبه من بعيد، تبقى في الأعلى من دون أن تنكسر. وحين سألتها إن كان هذا يعني أن نتخلى عن أنفسنا، ردّت بهدوء: لا، بل نحمي أنفسنا. لا نسمح للألم أن يصل الروح. فالجسد يمكن أن ينجرح، يتلوث، ثم يشفى. أما الروح، فيمكن إبقاؤها في مكان نظيف، بعيد عن أيدي الأنجاس.

تمد يدها لتلمس جبهتي، ويغدو صوتها وصية:

كل مرة يواجهك الألم، تذكّري أنه لا يستطيع الوصول إليك إلا إذا فتحت له الباب.

اتركي الباب مغلقًا.

عيشيه كدخان يمرّ، لاكسكين ينغرس.

في تلك الليلة التي تلي، حين يدخل الجورجي، يبقى كل شيء كما هو: يده قاسية، صوته ثقيل، فعله كريه، لكن شيئًا يختلف هذه المرة. أضع نفسي في مكان داخلي بعيد، حجر في قاع بئر لا تصل إليه أقدامه، أو بيت أبوابه مغلقة، لا يسمع منه أحد صراخًا. الألم ما زال يسكن جسدي، لكني لم أعد أُهزم تمامًا.

الفجر لم ينبلج بعد، حين يتغير كل شيء من خلف التلال بلحظة مجيء قافلة بصوت خافت؛ مركبات داكنة اللون، أضواؤها مطفأة، تطوّق المعسكر بهدوء مرعب، كما تفعل الأنياب حين تحاصر عنق الفريسة. لا إطلاق نار يُسمع، ولا صياح. أوامر تُرمى همسًا بين عناصر القوة.

يرفع بعض الحراس أيديهم دون مقاومة، يعلمون جيدا أن كل رصاصة تُحسب عليهم مضاعفة. تتجه مجموعة منهم مباشرة إلى بيت أمير ديوان المالية، الرجل الذي لطالما كانت أمواله وأسراره سببًا في سقوط كثيرين.

يُركل الباب الرئيسي، يتبعه صوت انكسار زجاج، ثم ترتج الأرض بأقدام الداخلين.

تُسحب زوجتاه من الداخل، إحداهما تمسك طرف عباءتها

وتحاول ستر شعرها، والأخرى تصرخ باسم كبير الحراس... لكنهم اختفوا منذ البداية.

يراقب المشهد من بعيد رجل بصوت متهدج:

- لقد هرب؟

فيرد آخر:

- البارحة كان هنا، شاهدته بعيني.

ويقول ثالث:

- معه الملاييـن... ربما قصد تركيا. قالوا تركيا، وقالوا كردستان العراق.

لكن الحقيقة الأشد قسوة أن هذا الرجل، بخيانته، يضع حياتهم كلها على المحك.

داخل البيت يستمر سحب الصناديق المعدنية التي دافع عنها الأمير أكثر من دفاعه عن أهل بيته. يفتحها أحدهم أمام القادة، فيجدها مكدسة بالدولار، دفاتر حسابات، وأسماء، وأسرار قد تقلب موازين القوة.

يقول أحد الأمراء وهو يتأملها ببرود:

- خيانة مزدوجة... أموال وأسرار.

ينتشر الصمت في المعسكر، تتصاعد الهمسات كظلال قاتمة، ويزداد تفادي العيون. وفي زوايا هذا الصمت تمرّ رسالة غير معلنة:

ان الصراع لم ينتهِ، وأنهم ليسوا بأمان.

ألتفتنا وأمينة إلى بعضنا، نؤمن أن اللعبة قد تغيرت، وأن الخطر اقترب أكثر من أي وقت مضى.

يسأل صوت خافت، ينبعث من قلب المعسكر:

- من التالي؟

***

(٧)

تمرّ أربعة أشهر، ينشغل الجورجي أكثر من أي وقت مضى، بترقيته إلى أمير ديوان المال لولاية الرقة، فيغرق في حساب السجلات، ويعود ليلًا محمّلًا بصناديق ثقيلة ودفاتر تمتلئ بالأرقام والأختام. يرفع رأسه بكبرياء، ويحدّث من حوله عن الأموال التي صارت بين يديه، وعن الأمير السابق يوم يفرّ بها كجبان.

تحاول پيريڤان أن تعيد البطانية على جسم رامي بعدما نزعتها منه حركة عابرة في النوم، ثم تواصل حديثها كأنها تغزل خيطًا من ذكرياتها. كانت تعرف في قرارة نفسها أن سلطته المالية الجديدة لم تُبدّله إلى الأفضل، بل أخذته بعيدًا عمّا كان، فالسلطة عندهم تسلب الإنسان ملامحه الأولى شيئًا فشيئًا، وتجعل قبضته أشد قسوة.

يقترب بعينين تلمعان بجشعٍ ووحشية، يفرض أوامر لا تنتهي، يجرّني بعنف إذا تلكأت، يترك على معصمي آثار قبضته، يظن جسدي قطعة من الخزينة التي يحرسها.

وفي ليلة خانقة السكون، يخفت صوته ويأتي صوت السماء: طائرات تشقّ العتمة، صفير طويل يمزّق الليل، يسبقه شعور بالانقباض في الصدر، ثم ينفجر كل شيء دفعة واحدة. البيوت تتهاوى، الخيام تتمزق أوراقًا في مهبّ الريح، الأجساد تتطاير، والهواء

يتشبع برذاذ الدم.

يسقط الجورجي وسط العتمة المشتعلة على ركبتيه، نصف وجهه يختفي، يبدو أن السماء تقرر أخيرًا أن تنتقم من أفعاله.

أتجمّد للحظة، قلبي يقرع كطبول الحرب، لا أعي إن كنت أصرخ أم أبتسم في سري. الرعب يطبق على حنجرتي وفي أعماقي يشتعل وميض فكرة مجنونة:

ربما... هذه الفرصة الحقيقية للخلاص.

ربما تبتلع الفوضى القيد، وتفتح أبواب السبي التي أوصدتها أركان الشريعة وسياط الخوف.

أركض متعثّرة بالأجساد الملقاة، والدخان يحرق عينيّ، والصرخات تحاصر سمعي من كل الجهات. قدماي ترتجفان، رجفة أمل تمتزج بارتعاشة خوف. ثم أراها... أمينة، ممدّدة على الأرض، دمها ينساب من جنبها، وعيناها مفتوحتان على فراغ أسود لا قرار له. أركض إليها مسرعة، أرفع رأسها وأضعه على صدري، أراقب أنفاسها المتقطعة، فكل شهيق معركة بحد ذاته.

تفتح عينيها وبصوت مبحوح، تسأل:

- أماتوه؟

أومئ برأسي:

- نعم... انفجر، انتهى. أما أنت، فلا تموتي. أنت لست واحدة

منهم... أنت منا، نحن البشر.

تضحك ضحكة قصيرة، مشروخة، يختلط فيها الألم بالاستسلام، ثم تغلق عينيها.

من تلك الليلة، يحدث في داخلي تغيّر كبير:

أنا التي كنت أُجرح، صرت من تضمّد الجراح.

أنا التي كنت أُقاد، صرت من أقود.

أجلس قرب أمينة يومًا بعد يوم، أغسل جرحها، أطعمها، أغيّر ضمادها، وفي قلبي يتسلّل شعور مختلف... شعور البقاء، لا النجاة فقط.

يمضي أكثر من أسبوع، ما أعود أُحصي الأيام، ولا يعنيني ما فات منها. كل ما يهمّ أن الجورجي يختفي، وأن الصباح يمرّ بلا صوته المنتظر. لم يعد الليل مرعبًا، صار مجرّد عتمة بلا أنياب. والأهم... رعاية أمينة، التي ترقد على فراش قديم في الزاوية، ضعيفة، بوجه شاحب، وعينان ما زالتا تشعّان بالحياة. في كل نوبة ضماد أمسك بيدها وأنظر إليها طويلًا. تبتسم ابتسامة خفيفة ثم تقول بصوت خافت:

- كبرتي بسرعة.

أضحك لها بثقة وأقول:

- من كثر الألم.

تهز رأسها:

لا... من كثر الصبر. حتى أن يسوع المسيح يقول: «بصبركم تقتنون أنفسكم».

سكون، لا يبقى فيه سوى أنفاسها وأنفاس شيرين المتقطّعة. وفي امتداد ذلك السكون يستمر صوتها كأنّه حكمة تسري في الهواء: من يعرف كيف يداوي جرح غيره بحنان، يكبر على جرحه، يتجاوزه، ويصير أرحب منه.

تتبدل مشاعري بعد هذه الحادثة؛ أشعر أني لم أعد ضحية، ولم أعد أُساق كغنيمة، أو أُستعمل كلعبة. أنا التي كانت تخاف الليل وحده... صرت أنتظر الصباح لأجل غيري. ومع هذا التغير كله، يبدو أني لا أتخلص من كل الخوف الذي يترسّب في داخلي، إذ أذكر وأنا منشغلة بتغيير الضماد أني أسألها بشكل مفاجئ:

- ماذا لو رجعوا؟ ماذا لو جاء غيره؟

تشد على يدي بقوة، وبهدوء واثق تقول:

- وقتها، تتذكري أنكِ پيريڤان التي تغيّرت. التي تعرف أين تخبئ روحها، وكيف تحميها... حتى لو كانت الحماية بوقع الصمت.

أسأل، والخوف يطل من عيني ثانية:

- يعني... سأتمكن؟

تبتسم ابتسامة متعبة:

- ستتمكنين... لأنكِ قررتِ أن تظلي حيّة.

.....

يدخلون بعد صلاة الفجر. هكذا هم دائمًا... ينشطون بعد أن يؤدوا شعائرها، وكأن الركعات تشحنهم بالطغيان. بعضهم يخرج ليتفقد السلاح أو ينظفه، وآخرون يتجمعون لشرب الشاي الثقيل الممزوج بأحاديث عن الغزوات، والمباهاة بعدد الرقاب التي يقطعونها، أرقام في لعبة طائشة. اثنان يتجادلان حول من هو أحق ببندقية جديدة، وثالث يتفاخر بأنه ألقى خطبة نارية بالأمس... أمام ثلاثة يتخيلهم خرفان وكبيرهم بعير مربوط. ثم تبدأ الأسماء تُنادى، واحدة تلو الأخرى. سبايا يُسحبن من الخيم كنعاج معدة للذبح، كل واحدة تسير إلى مصير جديد لا تعرفه.

«پيريڤان!» يُنادى الاسم بصوت جاف، فأتقدّم إلى الأمام. ألتفتُ إلى أمينة، نلتقي بنظرة صامتة، فتقول بعينيها: كوني صخر.

يقف خارج الكوخ، بين آخرين مسلحين. قصير، ممتلئ، لحيته كثة، ووجهه مصقول بالكراهية. نظراته لا تبحث عن امرأة... بل عن غنيمة. «أبو حفصة التونسي»، يهمس أحدهم.

أسمعهم يقولون إن له مكانة كبيرة كجزار في الموصل قبل أن يتحوّل إلى قاضٍ في محكمة الشرع. شخصية غريبة، يفهم العدل أن يضرب الجميع... وأن يقسو بالتساوي. له ثلاث زوجات لا تكفيه،

ويُقال إنه يبدّل النساء كما يبدّل سكاكينه... بسرعة وبلا أي شعور.

يتحدثون عن عدالته وكأنها إحدى كرامات الأولياء، يقولون إنه لا يفرّق بين رجل وامرأة في العقوبة... الجميع عنده سواسية تحت العصا.

يحكون أنه في أحد الأيام، يتشاجر اثنان في السوق: واحد يسرق رغيف خبز، والآخر يصفع حماره لأنه يتأخر. فيوقفهما وسط الناس، ويحكم على السارق أن يصفع حماره أيضًا، وعلى صاحب الحمار أن يدفع ثمن رغيف للذي سرقه.

وحين يسأله أحدهم:

- وأين العدل في ذلك يا شيخ؟

يجيب وهو يعدّل خنجره على حزامه:

- العدل أن يتألم الجميع، فلا يشتكي أحد!

ويقال إنه في يوم آخر، يقيم حدّ السرقة على رجل لأنه يأخذ حبل غسيل من جاره، ثم يعطي الحبل لزوجته الثالثة كي تنشر عليه عباءتها الجديدة. وكان يشرح بفخر: «أنا قاضٍ... والقاضي لا يضيع الحقوق، بقدر ما يبدّل أصحابها إذا اقتضت المصلحة.»

يقترب مني عابسًا، في عينيه يلمع بريق خفي، كمن يعثر على صيد نادر. يقول بصوت رخيم يخفي قسوته:

- أبحث عن بيضاء، غضة، تصلح أن تهبني مجاهدًا جميلًا.

كلماته مغطاة بسكّر الدين، ورائحته عفن، والعرق يتصبّب منه رغم برودة الفجر، وفي زاوية فمه قطعة صغيرة من طعام لم يمضغها جيدًا، فمٌ لم يتعلم إلا الأكل والنهيق.

ينظر إليّ كمن يقيّمني، ويقول أمام الحضور:

- هذه بنت طيّبة... سنرجّعها إلى طريق الله.

يمسكني من المعصم، ويسوقني خلفه. أمشي وداخلي ينزف مقتًا. في بيته، ثلاث نساء. وجوهٌ خافتة، مطفأة. يجلسني بينهن ويقول:

- هذه الرابعة... سبيّة، وليست زوجة. فاحسبن حسابكن.

كلمة «سبيّة» تنزل على قلبي، رصاصة قديمة... كنت أظن أني قد احترقت بما يكفي. لكن انفعالي في تلك اللحظة يؤكد أني لم أرَ الجحيم بعد.

تصطف الزوجات الثلاث، في مشهد يبدو أنه تكرر عدة مرات، ويبدو أنهن قد أدين هذا الدور من قبل.

الأولى: «أم ريّان»، في الأربعين، طويلة، ملامحها صارمة، وجهها مصنوع من الحجر.

الثانية: «سعاد»، في الثلاثينات، أكثرهن صخبًا، صوتها حاد، تحب أن تأمر وتوجّه.

الثالثة: «أم ليث»، عشرينية، بلا تعبير، تمشي كأنها ظلّ لزوجها،

لا امرأة.

لكل واحدة منهن مهام. أما أنا، سبيّة بلا اسم، بلا مهمة، بلا صوت. لكن أنوثتي التي تبدأ بالظهور رغمًا عني، وجسدي الذي لم يتهدّم بعد، وبشرتي التي لم تحترق بالشمس كما احترقت وجوههن في سنوات الحرب، تجعل عيونهن تلاحقني... مرة باحتقار، ومرة بحذر، وأحيانًا بشيء من الغيرة.

أستحم آخر واحدة، أتناول طعامي من بقايا الطعام في نهاية الصف، أنام في غرفة بلا باب. وكلما يمرّ أبو حفصة بقربي، أشعر بأعينهن تشتعل من خلفي.

في مساء يوم ممطر، مرّت أم ريّان بجانبي، تتمتم بكلمات بالكاد تُسمع، كلمات تقشعرّ لها روحي: لو أنهم نزعوا جلدها الأبيض، ووجّهوها إلى طريقهم، لصارت امرأة.

المطر يتساقط في الخارج، أما داخلي فقد أمطرتني جملتها بظلام لا ينتهي.

لا أعلّق، بعد أن تعلمت كيف أنجو... بصمتي. لكن التناقضات تصرخ في البيت:

المرأة التي تخرج كل صباح لتجلد النساء، تبكي كل مساء لأنها لا تنجب. وتلك التي تحفظ الأحاديث، تخفي تحت وسادتها كيسًا صغيرًا من البخور لتجذبه إلى فراشها. أما التي تطبخ، فتمضغ

طعامها ببطء، واثقة أنها وحدها من تملك حق الطعم.

غيابه في البداية راحة لا توصف. يذهب إلى الجبهات، يجتمع مع الأمراء، ويترك البيت مثل قنٍّ خالٍ. إلا أنه في الآونة الأخيرة، يعود فجأة. وإذا عاد، لا يدخل غرفهن... يقصد غرفتي التي يضع لها أخيرًا بابًا يغلق بمزلاج.

يقضي الليالي معي، ليالٍ أعدّها كأيام عار، وفي عيونهن ليالٍ من نار الغيرة. أراها في نظرات أم ريّان، حين تُكثر من الأذكار بصوت مرتفع قرب الباب، وفي همهمات سعاد، التي تقف عند عتبة الغرفة، تستغفر الله، ثم تضحك ضحكة باردة، وفي عين أم ليث التي لا ترد السلام. أعرف أن شيئًا ما يُطبخ. لم أتخيّل أنّه سيكون بهذا الشكل.

- ما هو؟ تسأل شيرين، وكأنها تستعجلها لهفة.

في إحدى الليالي، يعود، وكل غبار الصحراء على كتفيه، عيناه مرهقتان، لكنه... يبتسم لي، يشير بيده، فأسير معه نحو الغرفة. قبل دخولها تناديه سعاد، تخبره أنهن بحاجة اليه في أمرٍ عاجل... يتعلق بالشرف.

يتوقف، ويعود إلى غرفة الجلوس. أبقى خلف الباب، أصغي، ويجول بخاطري دون سبب واضح أمنية الحج إلى لالش، والشرب من العين البيضاء، وتذوق ماء زمزم، صور تتتابع في رأسي، خواطر صغيرة كنت أرسمها على التراب في طفولتي.

يخترق الباب لغط أصواتهن: سعاد تتهم بأنني أخفي شيئًا في ملابسي، وأنني أخرج إلى فناء البيت في الليل لأمكث تحت القمر وأتمتم مع نفسي... حتى ضبطنني أضحك.

تلحقها أم ريّان، تزعم أنهن وجدن قطعة قماش ملوّثة بالدم، دم غريب ليس دم حيض، تخشى أن أتعاطى شيئًا أو أمارس السحر.

وسرعان ما تضيف أم ليث، تفسّر ما يحدث بمسّ من أحد الجان، أو بعين الكفار التي ما زالت تلاحقني.

يصمت المجلس فجأة، ثم يرتجّ المكان بضربة على الطاولة، ويُعلن أنه سيتولّى الأمر بنفسه. حين يدخل عليّ، لم يحمل وجهه هذه المرة أثرًا للشهوة، وإنما غضبًا متلبسًا.

يقترب ويسألني مباشرة إن كنت أخفي شيئًا.

أنكر، لكن يديه تبدآن في تفتيش الملابس، قلب الفراش والوسائد، حتى صرخ بي: تركنا لك الطعام والمأوى وأكرمناك، فإذا بك تضحكين تحت القمر كالجنّية؟

انهال عليّ بعصاه التي يحتفظ بها للجلد، ثم حكم: من الغد تُنقلين إلى غرفة الحبس، ولا ترين النور حتى يتبيّن أمرك.

في الزاوية القريبة، أسمع همساتهن، ضحكات مختنقة، وانتصارًا كاذبًا. الغيرة أقسى من السوط، وأشد من السجن. لكني أعرف شيئًا في تلك الليلة هو أني لم أعد ضحيته فقط، صرت «عدوًا» لهن، لأني

لم أمت بعد.

.....

غرفة الحبس داخل البيت لا تعدو أكثر من مخزن، بلا نافذة، ولا فراش، ولا ماء إلا ما يُلقى في إناء صدئ. لكني لا أيأس. أتذكّر مقولة أمينة في الليلة الطويلة: «الضرب يُكسر العظم، أما الكيد يُكسر العقول... والمقاومة تأتي بالكتمان، والانتقام بالعقل».

في اليوم الخامس، تدخل سعاد وهي تحمل الطعام. تنظر إلي بنظرة «المنتصر»، وتقول: تأدّبي... واحمدي الله أن الشيخ لم يبعك.

أبتلعُ كلماتها، وأستجمع كل قدراتي وخبرات الأسر لرسم الخطة.

في اليوم السادس بعثتُ مع الحارس رسالة قصيرة، ترجّيته أن يأتيني ولو لدقيقة واحدة. أتى في اليوم السابع. دخل عليّ بصمت ثقيل، يحاول أن يخفي وراءه جبلاً من الاتهامات. لكنني لم أمهله الكلام.

انطلقت كمن يفتح جرحًا لا يحتمل المزيد: كيف صدّقت أنني كنت أضحك تحت القمر؟

بأي عين رآني أحدهن وأنا محرومة من النظر إلى السماء منذ شهور؟

أي قمر يتحدثن عنه، وأنا لم أرَ إلا سواد السجن وعتمة الجدران؟

ثم أي فناء هذا الذي يزعمون أنني أقصده، وهو ليس في متناولي أصلًا؟

تردّد، بدت عليه الحيرة، ثم ألقى بسؤاله المتهرب عن الدم الذي وُجد في متاعي. عندها رفعت رأسي بصلابة، وقلت: ذلك الدم لم يكن سحرًا ولا رجسًا كما ادّعين، بل أثر جرح قديم نزف بعدما ضربني أحد رجالك في النقل الأخير من المعسكر. كانت قطعة قماش لضماد، لا أكثر. وإن شككت، فاسأل حارسك القريب، فالحقيقة عنده.

تعمّدت أن أترك صمتي يملأ الفراغ بعد كلماتي، لأضعه وجهًا لوجه أمام مرآته. ثم واصلت، كمن يترافع أمام محكمة غير عادلة: إن كنتَ وليًا على نسائك، فأعدل بينهن. لا تجعل ألسنة الحقد تحكم مصير الأبرياء. وإن كنت تؤمن أن الكذب لإقصاء الغير حلال، فلتعترف أن شرعك صار ألعوبة بأيدي الغيرة والظلم. انصفني بالعدل، إن كنت تصرّ على هذا الطريق، وافتي بالحق أيّهما أنقى: قلبي الذي لم يعرف إلا الصدق، أم ألسنهن الخبيثة التي تتناوب على الطعن؟

يخرج من دون كلمة.

في اليوم العاشر، يتم استدعائي إلى غرفة المجلس. هو جالس، وبجانبه اثنان من الأمراء. ينادي نساءه الثلاث، يوجّه لهن أسئلة بسيطة، ويطلب رواية ما رأينه. ثم يفاجئهن بحضور الحارس، الذي

ينفي رؤيتي خارج الغرفة منذ أكثر من أسبوعين.

يُخرج قطعة القماش، ويعلن بصوت هادئ لكنه قاطع: الكذب في الخصام من صفات المنافقات. والغيرة التي تقتل عدل الزوج، حرام. ثم يتابع: أقسمتُ بالله، كل واحدة منكن تُهجَر من فراشي سنة كاملة، ولا تُعاد إلا بعد صدقة وكفّارة.

أخرجُ من الغرفة، أرى وجوههن مصفرة، مشدوهة، تنهار ببطء. لا أنظر إليهن، لكني أشعر، بنشوة فائقة من أني باقية على قيد الحياة... وبالتفاتة ذكية.

وفي الليل، حين أضع رأسي على الأرض الخشنة، يجول في خاطري كم أصبحت قوية. أحمد طاووسي ملك أني لم أغيّر ديني. أتخيّل أن من يغيّر دينه هو الكافر، والملحد، والزنديق. وأنا لست منهم، ولن أكون منهم، ولا مثلهم. ما يفعلونه بي يكفي أن أبقى على طهارتي ونقاوتي، كأيزيدية مؤمنة بخدا إلهًا عظيمًا، وطاووسي ملك شفيعًا ليس كمثله شفيع.

في تلك اللحظة تعود إلي صورة سنجار... البيوت المصفوفة على التلال، رائحة الصباح، صهيل الخيل في المراعي البعيدة. أرى السوق القديم، وأرى الأطفال يركضون قرب نبع الماء، ثم يتبدد كل شيء في ضباب الحرب. أسأل نفسي: هل بقي هناك بيت ينتظرني؟ هل بقيّ هناك مَن يعرف اسمي؟

أحاول أن أقنع قلبي أن ذلك ممكن، أن الطريق إلى سنجار الوطن ما زال موجودًا، وممكن الوصول اليه... حتى لو كان الآن مدفونًا تحت الركام.

***

(٨)

تتآكل دولة الخلافة، ويتساقط مع خطوات تآكلها رجال كانوا بالأمس يملؤون الدنيا صخبًا وشعارات. القصف على أرجائها لا يهدأ، والاغتيالات الداخلية تأخذ ما تبقى من الصفوف. تتكاثر الشكوك، ويتحوّل الإخوة في السلاح إلى صيّادين يترصّدون بعضهم بعضا.

في كل بيتٍ تُفتّش الأرض والجدران قبل القلوب، وفي كل مضافة تُكتب تهمة قبل أن يُسمع دفاع. الليل يزداد ثقلًا، والخوف يزداد حدة، حتى يصبح الصمت نفسه دليلًا على الخيانة.

في هذا المناخ الخانق، تبدأ تلك الليلة. لم أكن أعرف أن للصمت رائحة، حتى تحلّ هذه الليلة.

الجو ثقيل، خالٍ من الهواء والأصوات، إلا همسات النسوة في بيوتهن. بيت أبي حفصة وحده بلا همس؛ فصاحبه لا يعود منذ يومين. وقبل غروب اليوم الأخير من الاسبوع، يصل الرهط:

سيارات دفع رباعي، ملثمون بلا شارات «الولاية»، عيونهم مسمومة، صراخهم قاسٍ، وسلاحهم لا ينثني، يدخلون البيت كالسيل، يصرخون على النساء لزوم الذهاب إلى زاوية البيت، وعدم التحرك. ثم ينادون على أحدهم، اسمه «أبو قتادة الشامي». يقول

بصوت واضح:

- تتأكد لدينا المعلومات من مجاهدينا في تونس أن الشيخ أبو حفصة التونسي، جاسوس للكفار، هو من أرسل إحداثيات المعسكر للعدو الصليبي.

سعاد تشهق، كأنها تشرب نارًا. تحاول أم ريّان تبرير شيء، فيطلب منها أحدهم أن تصمت... فالمنافق لا يطهره الكلام.

يبدؤون التفتيش. غرف، خزائن، الأرضيات. يقلبون الفرش، يمزقون الكتب. يدخلون غرفة سعاد. يقتلعون بلاطة من الأرض تحت السرير. هناك، في صندوق معدني صغير، يجدون ثلاثين ألف دولار، وسبائك ذهب صغيرة مختومة بختم "Credit Suisse"، وجواز سفر فرنسي... بصورة أبي حفصة، واسم غير اسمه.

يسود الصمت. ينظر أبو قتادة إلى الجميع، ويقرر مصادرة كل ممتلكات الخائن، وحجز كل من في بيته حتى تتبيّن الحقيقة.

يشير إلى امرأة ترافقهم من ديوان الأمن الشرعي أن تأخذ الأطفال إلى المضافة. ثم يرفع صوته:

- كل النساء، الزوجات، السَبَايا تحت التحقيق.

تشهق أم ريّان:

- نحن زوجاته على سُنّة الله!

فيرد بصوت جامد:

- الله لا يزوّجكن لخائن.

أما أنا فأقف جانبًا، أظن أنهم ينسونني، لكن إصبعه يمتد نحوي كإشارة لا يمكن ردّها. يتردّد في الجو صوته يسأل عني، ثم يتعاقب الجواب من أفواههم: سبية كانت مخصصة للخائن وحده. ويعقبه آخر ببرود أشدّ: خذوها، فهي من الغنائم.

نخرج من البيت كأننا خارجون إلى مجهول، لا أحد يعرف إلى أين يقودوننا. من الداخل يعلو صوت سعاد، تصرخ أن المال كان مخبأً عنده، تقسم بالله أنهن لم يعرفن شيئًا. لكن الاستغاثات تتلاشى في الفراغ، لأن الكلمة حين تتحول إلى شبهة، لا أحد يصغي بعدها.

كل شيء يُصادر: الذهب، الأوراق، النساء. حتى أنا التي أخرج معهم في شاحنة، مربوطة اليدين، كقطعة أثاث، لسان حالي يقول: أنجو من أبي حفصة، فأدخل في المجهول الأوسع، في سوق الغنائم.

يدخلوننا مبنى حجريًا قديمًا، رائحته عفن وبقايا قيء. الأبواب حديدية، والدهاليز ضيقة تُجبر الداخل على التقوقع قبل الوصول إلى الزنزانة. يدفعونني داخل غرفة تفيض برطوبة الجدران ووجوه الخائفات. خمس نساء أخريات.

فتاة ذات بشرة سوداء في أوائل العشرين.

امرأة شيشانية بصدر مشقوق يمتد تحته أثر جرح قديم.

مغربية صامتة تحمل في عينيها غيابًا كاملًا.

عجوز بعين واحدة تحدق في الفراغ، وفتاة صغيرة لا تبلغ الخامسة عشرة.

كل واحدة تحمل جرحًا، وكذلك قناعًا؛ قناع النجاة في مكان يسحق الروح قبل الجسد.

في الليل، تهمس المغربية:

- هنا، لا تبكي إلا الجدران... نحن جففنا الدموع من زمان.

لكن ما يثير الرعب حقًا هنّ السجّانات. يرتدين السواد الشرعي، وجوههن مغطاة، باستثناء العيون التي تحمل فُحشًا ونظرات مريبة.

عشتار السجّانة الأقدم تدخل بعد منتصف الليل، تختار فتاة الخامسة عشرة بصمت، تقتادها إلى «غرفة التعليم». تعليمٌ يعرف الجميع أنه من نوع خاص.

الفتاة الصغيرة تعود بعد ساعة وعلامات لسع جنسي أسفل الرقبة، تتجه إلى حنفية الماء المركونة جانبًا لتغسل جسدها بالماء البارد وتتمتم:

- قالت لي أحبك في الله... ثم خلعت نقابها، وبدأت...

في الصباح، يُجبر بعضنا على حضور دروس في «فقه الحسبة»، تلقيها سجّانة أخرى تُدعى «أم مالك». تضع مساحيق خفيفة، تبتسم

للكاميرا وهي تشرح عن «العفّة».

تناقض فاضح؛ حديث عن الطهر في سجن يُوزَّع فيه الجسد على أدوار، لا على أسماء، وعن سجينات هن في الأصل منقسمات:

بعضهن مبايعات يأتين طوعًا للجهاد ثم يتمرّدن أو يُحبسن لأسباب انضباطية، وبعضهن سبايا، وبعضهن جواسيس سابقات لا يصدق أحد توبتهن. أما أنا، فآخذ جانب الترقّب، أفكّر كل ليلة: هل ما أعيشه الآن هو الدرك الأدنى... أم أنه مجرد مقدّمة له؟

في الزنزانة، أبدأ الكتابة في ذهني، لا على الورق. كل ما أراه أخزّنه كسلاح مؤجَّل، ليوم سيحين موعده. ربما إن مت، تخرج كلماتي من تحت التراب لتحكي عن سجن النساء الذي لا يعرفه أحد... إلا من عاش صمت جدرانه. فالصمت ليس فراغًا؛ إنه كتلة ثقيلة، له رائحة ظلمةٍ مشبعة بالغبار والأنين، تتسرب إلى رئتي وتبقى هناك.

الليل يمتد حتى يشيخ في عيني، والنهار لا يجيء إلا ليجدد الوجع. الوقت في هذا المكان لا يمشي، بل يُنتزع من الجسد انتزاعًا، زفرة بعد زفرة بعد زفرة، حتى لا يتبقى منها إلا هيكل من صبرٍ مشقوق، يتفتت ببطء.

....

في السادسة عشرة، تكتمل ملامحي الأنثوية، ويمتلئ خزين وعييّ بتجارب من كل نوع. جسدي لا يعود يناسب ثوب الطفلة، ولا

نظرة الرثاء. بعض العيون تبدأ تتحوّل نحوي بشيء آخر، شيء يشبه الجوع المقنّع. شعري الذي أقطعه خلسة يعود لينمو، وعيناي، بلون الغبار بعد المطر، تصيران أكثر حضورًا. ليست الأجمل، لكنها الأبعد عن الركوع. صوتي هادئ، وكلماتي حادّة. حين تسألني سجّانة:

- هل تفهمين؟

أجيب بثبات:

- أفهم أكثر مما تظنين... لكني لا أوافق.

جملة كهذه تكفي لإغضاب كثيرات، لكن عشتار، السجّانة الأقدم، لا تغضب، على العكس تبتسم بنشوة. هي أطول من باقي السجّانات، تضع الكحل بحذر، وعطرها لا يشبه رائحة الزنازين؛ إنه أقرب إلى محاولة فاشلة لتهريب فصل الربيع في جيب معطف.

في ليلة يغيب فيها القمر ويشتد القصف البعيد، تدخل عشتار الزنزانة في صمت. تقف وسط المسجونات، تنظر إليّ دون أن ترمش، ثم تقول ببساطة:

- أنت... تعالي معي.

لا أتحرك من مكاني.

تعيد بهدوء، وكأنها تمنح فرصة أخيرة قبل أن تتحول الفرصة إلى أمر:

- پيريڤان... أليس هذا اسمك؟ أدخلي غرفتي. عندي لك درس

عن الأمانة.

أسير خلفها. المفاتيح في محزمها تصطك، خطواتها فوق البلاط كعدٍّ تنازلي. أنفاسها، في الممر الضيق، أكثر رعبًا من السياط.

ندخل الغرفة: مكتب بسيط، سرير، سجادة صلاة، قرآن على طاولة صغيرة، مصباح خافت، ورائحة بخور تحاول عبثًا أن تغطي شيئًا آخر يثقل المكان.

جلست عشتار بثقة غريبة، تمسك بزمام الغرفة وما فيها. نظرت إليّ طويلًا، ثم انساب صوتها في الهواء كإقرار خفي: كانت تعرف أنهن يحسدنها عليّ.

تثبّت عينيها في وجهي أكثر، تبحث عن شيء لا تراه في الأخريات. همست أنني مختلفة، أن فيّ عنادًا غريبًا يلتصق بنوع من الجمال لا يشبه ما لدى البنات الأخريات.

لم أفهم قصدها، أو ربما تظاهرت بالبلادة في حينها، علّني أقطع الطريق على ما تريد. لكنها اقتربت أكثر، مدّت يدها لتزيح خصلة من شعري، فتراجعت بخوف لم أستطع إخفاءه.

ابتسمت عندها، كمن يعلن عن صفقة بلا شروط مكتوبة، صفقة تفرضها بنبرة واثقة:

لن تؤذيني، قالت، كل ما تريده أن أكون لها... وحدها.

منذ تلك الليلة، تبدأ دعواتها المتكررة إلى «غرفة التعليم». لكني

لا أتعلم هناك إلا الصمت المراوغ، والفن الدقيق لابتلاع الأسئلة قبل أن تصل الشفاه.

عشتار تفضّلني على الأخريات: تقدم لي طعامًا خاصًا، تسمح لي بالاستحمام وحدي، تعفيني من المهام القذرة، والثمن بطبيعة الحال أن أصبح محظية لا تُمس... إلا من يدها العاشقة. لعبة محروسة، تكرهها الأخريات، وتحميها السجّانة جائزة من نوع خاص. وفي كل مرة أسمع عبارة «درس جديد»، أعرف أن الأمر لا علاقة له بالتعليم، وأن عشتار وحدها تملك قاموس هذه المدرسة.

ستة أشهر تمضي وأنا أنزوي كل نهار بين السجينات، أتبادل معهن النظرات المحروقة والأحلام المقطوعة. كل ليلة، أنزلق من بين القضبان، لأجد نفسي بين ذراعي عشتار، صاحبة اليدين الخشنتين والقلب المغلف بقفاز من نار.

غرفة عشتار عالم مختلف: بخور يتصاعد ببطء، شراشف نظيفة، سجادة صلاة تعكس شيئًا من شخصيتها... أو ما تريد أن يراه الآخرون. تحدثني كما لو كانت تحاور لوحة على جدار:

- پيريڤان... أنتِ شيء لا يُباع. أنتِ شيء يُحتفظ به إلى الأبد.

تكرر عليّ أنها محظوظة، وهي تبتسم، لكنها تضع ابتسامتها في مكانها كمن يعلّق قناعًا.

في الشهر السادس، يصل الخبر: الشيخ التونسي - أبو حفصة -

يثبت تجسسه.

قرار سريع، لا وقت فيه لتأمل أو استئناف. ينقلونه مع زوجاته الثلاث إلى ميدان العدالة... هكذا يسمونه. أما السجينات فيسمينه «ساحة الصمت المذبوح».

الساحة في الصباح الموعود تشبه مسرحًا شعبيًا: أكوام من الحصى، رايات سوداء تتمايل مع الريح، رجال يصفقون بإيقاع متعجّل، صبية يركضون بين الصفوف، نساء يختبئن خلف جدران نصف منهارة، وبعضهن يتسللن إلى الأمام ليلتقطن صورة بعين الذاكرة. رائحة الغبار تمتزج برائحة اللحم المشوي من بسطات قريبة؛ فالموت هنا لا يكفي وحده لملء الهواء.

أبو حفصة يُنقل إلى الساحة مقيّد اليدين، ذقنه الطويل يوحي بممثلٍ سيّئ في مسرحية مكشوفة، يركع أمام السياف، وليس بهيئة شيخ.

القارئ يتلو آية من القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال:27]. ويختم قراءته:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج:38]. بصوت جهوري يختلط مع صياح بائع ماء يمر خلف الصفوف.

يعلن الحكم بقطع الرأس، ثم ضربة واحدة، يسقط ذاك الرأس،

وينفجر الدم على التراب الساخن.

لحظة الصمت التالية تمثل ارتباكًا قصيرًا قبل أن يبدأ التصفيق من جديد.

سعاد تسقط مغشيًّا عليها، أما أنا، سبيته الحائرة، فلا أشعر بالشماتة ولا بالراحة... أشعر فقط بالخواء، كأن المشهد يبتلع إحساسي كله.

الإعلان التالي يأتي كخاتمة مسرحية:

زوجاته الثلاث خرجن بريئات، فيطلق سراحهن أمام الحشد. أما السبية فتعاد إلى الخزينة، مؤجلة، يُنظر في أمرها لاحقًا.

عشتار تتقدم في تلك اللحظة، نبرتها هادئة، تعرض حلًا لوجستيًا عابرًا، تقترح الاحتفاظ بالسبية مؤقتًا، ريثما يُقرَّر مصيرها حسب الشرع.

يوافقون، فهي صاحبة «يد بيضاء» في تربية النزيلات، حسب سجلاتهم. وهكذا أنتقلُ من زنزانة إلى بيت بلا مفاتيح. نوافذه كلها تؤدي إلى عيني عشتار، وأبوابه تُغلق خلفي بصمت مدروس. لم أعد أُسمّى «السبية»، صرت «الضيفة». لكنني أفهم أن الضيافة عند عشتار ليست كرمًا... إنها الحبس في بدلة سهرة.

.....

أقيم في بيت عشتار شهورًا، حتى يخيل إليّ أني صرت قطعة من

أثاثه، أو ظلًا يتبعها أينما مشت. لا أحد يتحدث عن نقلي، كأنهم ينسونني... أو لعلها هي من تتعمد تأخير النسيان. عشتار تتحايل على الوقت، تغريه بالبقاء، حتى لا يقال إن موعد التوزيع قد حان.

لا تخفي رغبتها، بل تحتفي بها وسامًا مميزًا. تتغزل بجسدي كما يتغزل الشعراء بالأثر النادر:

- جسدكِ فتنة، ليس لأنكِ جميلة، وإنما لأنكِ تشبهين الخطر... وأنا لا أحب إلا ما يحطمني ببطء.

لكن الزمن لا يقبل المساومات طويلًا. واليوم يأتي الأمر من الأمير بإحضاري إلى الديوان.

تشعر عشتار للحظة أن الحكاية ستنتزع من يديها، وأن محظيتها ستُرمى كغنيمة في يد من لا يفهم «قيمة الجمال» - كما تحب أن تقول، وحين يشتد القلق داخلها، تهمس بمرارة:

- سيسلمونكِ لرجل لا يعرف كيف تُروى امرأة.

تقترب مني، وعيناها تقرآن وجهي قبل أن أنطق. لكنها تتكلم بصوت مكسور لا يشبه ما عهدته منها، تتوسل أن أعتنق الإسلام، أن أنطق الشهادة في العلن وأحتفظ بديني الأيزيدي في السر. أُعلنها فقط... كي أبقى إلى جوارها، مجاهدة أسكن معها، حتى يجدوا لي زوجًا. وهذا يمكن تأخيره... سبيلًا لمد مقام العشق، لا الإيمان.

رجاء لا يشبه توسلات الأقوياء، لا يُسحب من اللسان. تنهي

اقترابها بنظرة صامتة تفيض بالدهشة، وتترك خلفها فراغًا يزداد ثِقَلًا في صدري، فراغًا لا يملؤه سوى سؤال معلّق: أأستطيع حقًا أن أفعل ما تطلبه؟

تقترب أكثر حتى تكاد تلتصق بوسطي. يصعب عليّ التمييز بين رائحة العطر ورجفة الجلد. تمسك وجهي بين كفيها كما يمسك عاشق بذكرى يخشى أن تموت، فترتعش. ترتعش، ويضطرب الهواء حولنا بخفقةٍ حبيسة لا تجد مخرجًا، عندها تهمس بقدر مكسور:

- ابقَي... فقط ابقَي.

وأنا أراها تتفتت أمامي، أقول:

- أتتركين ربكِ لأجلي؟

جاء ردّها سريعًا، كأنها كانت تجهّزه منذ زمن بعيد. لم تكن تريد أن تتركه، بل كانت تتوسل أن أبقى معها. قالت إن الأمر كلّه شكلي، يا پيريڤان، وإن ما يطلبونه ليس سوى كلمات عابرة. عادت تكرر الرجاء أن أنطق الشهادة وأحتفظ في داخلي بما أشاء، مؤكدة أن الدين يمكن أن ينتظر... أما أنا فلا.

أبتسمُ ابتسامة لا تشبه الرضا بقدر ما تشبه من يرصد تناقضًا مفضوحًا، وأقول بهدوء فيه وخز ساخر:

- في الأسر، يتخلى الإنسان عن أشياء كثيرة، نعم... لكن الدين،

عند من يؤمن به، ليس بطاقة هوية تغيّر عند المعابر. هو ليس الحقنة التي تأخذينها حين تحتاجين الثبات، وتتركيها حين تكتفين. أنتِ لا تتوسلين إلى ربكِ الآن... أنتِ تنافقينه كي يخدم ما تريدينه أنتِ.

يصمت الهواء بيننا لحظة، قبل أن تحاول عشتار إعادة خيوطها القديمة، فترمي المنطق خلف ظهرها، وتقول:

- ابقَي معي، وأنا مستعدة أن أهرب بكِ إلى أي مكان.

- آخذكِ إلى بلدي الجزائر، إلى ضفاف بحيرة لا تعرف القيد، أو نذهب إلى أوروبا... هناك تُفتح الحياة للعشق المثلي، وهناك نصبح حرتين، عاشقتين لا تسألهما دولة عن دين أو نسب.

أتراجع خطوة، لأقطع ذلك الخيط الحسي الذي يكاد يسحبني خارج وعيي. ثم أضحك... ضحكة فيها وجع امرأة تعرف أن ما يحدث أكبر من مجرد رغبة، وضحكة انتصار أنثى تدرك أخيرًا ثمنها.

وعندما أهمّ بالابتعاد، تندفع نحوي فجأة، تعانقني كمن يخشى أن يتبخر جسد المقابل في الهواء، أو كما لو كنت الغنيمة الوحيدة التي لا تفرّط بها الحرب.

بعد انفلاتي من حضنها، ينغلق الفراغ حول عشتار كزنزانة أخرى، أضيق وأعتم. تجلس على الأرض، تفتش بيديها عن بقايا العناق، تنقّب عن أثر مفقود. جسدها يرتجف، وابتسامتها التي

قاومت الانكسار تنطفئ ببطء، ثم تعود لتتشكل على شفتيها ظلّ لا يريد أن يموت. في عينيها صراع غامض: أنثى تنكسر للحظة، وسجّانة تلتقط شظاياها، كأنها تخبئ وراء الانكسار بذرة خطة لا تريد لأحد أن يراها.

***

(٩)

الديوان في دولة الخلافة ليس أكثر من سوق صاخب، لكنه مغطّى بستائر من وقار مصطنع. أوراق تتكدّس كما لو أنّها فواتير، وأختام تُضرب على القرارات كما لو أنّها بضائع. الداخلون يَحنون رؤوسهم كي يلتقطوا الفتات المتساقط من موائد النفوذ. يُسمّى «ديوان الحكم»، لكنه في الحقيقة دفتر محاسبة للغنائم: من نُزعت منه أرضه، ومن وُهب له سبيّة، ومن كُتب له نصيب في قافلة تُساق بإسم الدين. كل شيء فيه مرتبك، بارد، خالٍ من العظمة التي يدّعونها؛ أشبه بمسرحية مملة تُعاد كل يوم بالوجوه نفسها والكلمات ذاتها.

تم الدخول اليه بخطى هادئة، فيها من التحدي أكثر من الطاعة، ومن القصد أكثر من التلقائية. كل شيء في الوقوف كان محسوبًا: انحناءة الكتف، المشية البطيئة، النظرة التي تتجوّل ببطء في وجوه الحاضرين ثم تستقرّ على عرش الأمير.

والأمير جالس على كرسيّه بثقة عالية، يستعدّ لإجراءٍ إداري جاف. يسحب ورقة ويقرأ منها كما لو أنّه يعلن رقمًا من دفتر توزيع الغنائم:

تُخصَّص السبية پيريڤان للمجاهد سالم من الجزيرة العربية، الشاب المتشوّق للجهاد، والسير على نهج السلف الصالح.

ألقيتُ بنظري إليه نظرة مشبعة بشيء آخر، لا يُكتب في الأوامر التي يصدرها، نظرة أنثى تحمل في داخلها قصة. ثم، كما لو أنّ شيئًا ينكسر فجأة في الأعماق، أتمايل بجسدي نصف خطوة، يكاد أن يسقط من تعب داخلي مفتعل قد بلغ الذروة.

يهرع الحارس القريب، لكنّي أعدلت من وقفتي بنعومة، نهضت بخفة واثقة، ومرّرت تلك الابتسامة التي لا تخصّ إلا رجلًا واحدًا حين تختار الأنثى أن تنقضّ. ابتسامة خاطفة فيها وعد وفيها تهديد، تدرك من بعدها أنّها تُصيب.

يتلعثم الرجل. لا يتحدّث للحظة. ينظر إلى الورقة من جديد، ثم يطوي الزاوية السفلى منها بلا داعٍ، ويعلن أنّ الأمر يستحقّ إعادة النظر، إذ إنّ السبية پيريڤان، ورغم مرور السنين، ما زالت على دينها كافرة، وبالتالي فهي تحتاج إلى المزيد من إعادة التأهيل الروحي قبل تسليمها مباشرة. ثم يضيف، كمن يقرّر أمرًا لا يُناقَش، أنّها ستبقى في جناح الضيوف تلك الليلة، وأن أمرها سينظر فيه غدًا.

يرفع عينيه، ولا ينظر إليّ، يركّز بصره على أحد معاونيه في محاولة للهرب من وجه المرايا.

قلت في داخلي: بيت جديد... قائد جديد... والحرب ما زالت مستمرة.

لم أنس في تلك اللحظة مرارة الأسر، وقد رسمت الزحف نحو قلبه

لهدمه من الداخل، وسأفعل ذلك كلما تسنح الفرصة.

يقتادني الحارس بصمتٍ خانق عبر ممرّ ضيّق تتعاقب على جدرانه أبواب متهرّئة، تشهد على أعمارٍ تآكلها الخوف. رائحة المكان مشبعة بالأسى، تمتزج في أنفي برائحة الحديد البارد. شعرت أن كل خطوة أثقل من أختها، وأحسست أن الأرض نفسها تمتحن قدرتي على الاحتمال.

تجاوزت الدهشة، خنقتها في صدري، فقد عرفت منذ اللحظة التي وقفتُ فيها أمام الأمير، ومنذ أن تسلّلت نظرته الحادة من بين أصابعه التي يستر بها نصف وجهه، أنّ جسدي لن يُسلَّم إلى المجاهد السعودي. كان في تلك النظرة قرارٌ غامض لا يُفسَّر بالكلمات. عندها أدركت، بكل يقينٍ ممزوج بالخوف والرجاء، أنّ المعارك التي تُخاض بالعقل أشد قسوة من حروب السيوف، وأنها قادرة على أن تغيّر خريطة الأجساد وتعيد رسم مصائرها.

يفتح الحارس بابًا يُصدر صوتًا، ثم يقول بخفوت:

- ستقيمين هنا الليلة... سكت قليلا ثم أكمل:

- وربما بعد ذلك أكثر من ليلة.

تأتي عبارته لا أمرًا ولا خبرًا، بداية شكل جديد من الأسر.

دخلت الغرفة بتأنٍّ. كل شيء فيها يدلّ على رجل يحكم الجماعة من مخدعه: سرير بأربعة أعمدة، ستائر بلون النار، مرآة تُطيل الجسد،

تجعله يبدو وكأنّه راكع... عباءة الأمارة على طرف الأريكة ما زالت دافئة، وسجادة صلاة.

لم أستغرب، وبدلًا من الاستغراب رحت أمشي واثقة من نفسي، أتحرك وأنا أعرف تمامًا حدود الجاذبية، وموضع كل فتنة.

لم يأتِ فورًا، تركني أتحرّك داخل الغرفة شبه المعزولة، يريدني أن أتهيّأ... أو أن أتهيّب.

جلست على طرف السرير، ثم نهضت.

خلعت حجابي ببطء، حرّرت شعري، حدّقت في المرآة وتنفسّت: هذه ليست ليلة ضعف، هذه مسرحية، وأنا الكاتبة والممثلة والجمهور.

يقترب بعد قليل، يحمل كأسًا فيه شراب من زبيب، يتظاهر أنّه شراب العظماء، بينما لا يزيده إلا وهنًا. لا يعرضه عليّ، فالكرم عنده رفاهية لا يليق أن يمنحها لأسيرة.

يجلس على طرف السرير، يحدّق كمن يبحث في وجهي عن اعتراف يبرّر له ضعفه، وتفضحه رعشة صمته أكثر من أي كلام. ثم يجرؤ أخيرًا على الكلام، فيقول بنبرةٍ متعجرفة: إنّه متزوّج من أربع. أربع! كأنّ العدد يعوّض عن الفراغ.

أبتسم بسخرية، وأجيبه بنبرة هادئة لاذعة: لا أظن أنهن مثلي.

يرتبك، يرفع حاجبه متظاهرًا بالدهشة، ثم يضحك ضحكة

قصيرة مبتورة، يسرع في وأدها قبل أن تفضح خواءه. يسأل متلعثمًا: ماذا تنوين؟

أتنهّد ببطء، أترك كلماتي تخرج مثل خنجرٍ مغلّف بالهدوء: جسدي سلاح بين يديك إن أردت، أو ضدك إن اضطررت. القرار لك، لا لي. والخيبة، في الحالتين، نصيبك أنت.

يصمت لحظة، ثم ينهض ويقترب، عارفا أنّه الأقوى، لكنه يتردد أمام عينيّ. المسافة بيننا قصيرة، لكنها كافية لتُعلن أنّ هذا الجسد فخ.

يمرّر إصبعه على عنقي، يحاول اختبار درجة الاحتراق؛ ساخنًا، ناعمًا. يشهق تحت اللمسة، ثم يهمس:

- ستكونين من حاشيتي. لا تُعاملين كغنيمة، محظية لن يلمسك أحد سواي.

أومأت برأسي كمن يوافق اشتياقًا، وفي داخلي أواصل رسم خريطة الأتباع، أحصي النساء، أستعيد أبواب الغرف ومفاتيحها... وأؤكّد لنفسي أنني لغم وليست محظية.

يعدّل من جلسته وقد اقترب الليل من الانتصاف. بدا مترددًا رغم أنّه صاحب الأمر، كأن بينه وبين هذه الخطوة رهبة. عيناه تشتعلان، يرمقني ككنز خرج من الأرض للتو، مغطّى بالتراب والرغبة. يزيد اقترابه ببطء، يقيس المسافة بين المُلك واللذة، ثم يجلس بقربي

دون كلمة. أنفاسه تتصاعد أثقل من العادة، ويده المرتعشة تفضح شيئًا لم يألفه، أو لم يعد يقوى على مقاومته.

لم أبتعد، فعلت العكس، اقتربت أكثر، وتركت جسدي ينساب على صدره وشاح دافئ.

أضع يدي على أعلى رقبته، قرب أذنه، وأهمس بصوت خافت، ناعم، يحمل من النعاس بقدر ما يحمل من الرغبة: ألا يمنحني الأمير سماحًا... فقط لهذه الليلة؟

ينظر إليّ مشدوهًا، يبتلع صمته كما لو عجز عن فهم الطلب.

أتابع وأنا أقرّب وجهي حتى يلامس عنقه: إنها الليلة الأخيرة من الطمث، وأعرف دينكم... لا تقربون النساء في أيامهن. امنحني عذركم، وسأمنحك غدًا ما لا يُنسى.

يشهق فجأة تحت تأثير المباغتة الواعدة، ويشدّني إلى حضنه ضمّة المرتبك الذي يخشى أن يُختَبر صبره.

أعمد إلى التماهي معه، لا إلى المقاومة، أتحرّك في حضنه ببطء محسوب، كمن يقيس موضع كل فتنة ليتركها في مكانها المناسب.

يقول بصوت مبحوح، متشبّثًا بوهج اللحظة: لا أريد أحدًا غيركِ في هذا الجناح... أسبوعًا كاملًا، لا يدخل ولا يخرج أحد إلا بإذني.

أبتسم في صمت، فلا أعلّق، وأنا واثقة أن نساءه لن ينمن تلك الليلة، وأن الحراس سينقلون الخبر مشوّشًا، وأن الغيرة بدأت تنتشر

بين جدران البيت مثل عدوى خفية. وقبل أن يغادر، يطبع قبلة سريعة على شفتيّ، ليباركني، ثم يهمس: ليلة الغد... سأنتظرها كما لم أنتظر شيئًا من قبل.

أومئ فقط، بينما أقول لنفسي: أجل، انتظرني... فالليالي حين تُؤجَّل، لا تأتي أبدًا كما يظنّ الرجال.

.....

يستيقظ الأمير مبكرًا على غير عادته. طلب ماء ورد. ذهب إلى الحمام بنفسه، لا يريد أحدًا أن يراه في حاله هذه. اغتسل بتمهّل، حلق أطراف لحيته، تعمّد أن ينتقي ثوبًا أبيض لم يلبسه منذ شهور، وتبخّر بثلاثة أنواع من الطيب دفعة واحدة، صامتًا، يردّ على الأسئلة بنظرات قصيرة، لا يريد أن يشتّت فكره عن «ليلة الغد التي أصبحت الليلة».

يتهامس الحراس، وينقلون ما شاهدوا إلى أم أسامة، الزوجة الأصغر والأقوى، وتولّت عشتار ما تبقّى من مستلزمات إشعال الفتنة.

في ركنٍ من أركان البيت، حيث تجتمع النساء للتزيين، تدخل عشتار بحضور ثقيل، تحمل معها نبرة تعرف تمامًا كيف تُؤجّج الغيرة بالكلمات. تقول بصوت مسموع، مصنوع بعناية، وكأنها لا تقصد شيئًا:

ألا ترين؟ مولانا الأمير اليوم متأنّق أكثر من اللازم... أغلب الظن أنّ ليلة الأمس لم تكن سوى مقدّمة. تضحك بخفةٍ مصطنعة، ثم تضيف: قيل لي إنّه نام ولم يلمسها. قالت له إنّها في أيامها. آه، ذكية تلك السبية... جعلت من جسدها وعدًا مؤجَّلًا.

ترفع إحدى الزوجات نظرها من المرآة، تتوقف الأخرى عن تمشيط شعرها، وتسكت الثالثة فجأة، لابتلاع ريقها. وفي المقابل، تتابع عشتار كلماتها ببطء، لسكب الزيت على نارٍ خفية: والأدهى... أنّ الأمير قد أمر ألّا يدخل أحد جناحه ولا يخرج إلا بإذنه، طوال أسبوع كامل. هكذا قال، بالحرف الواحد، وأمام الجميع.

تتظاهر إحدى الزوجات بالضحك، وتقول بنبرة مسمومة: أسبوع؟ كأنّه يعيش شهر عسل جديد! وتعقّب الأخرى بسخريةٍ حارقة: تُرى... ما الذي في تلك الأزيدية جعله ينسى من كنّ نساءه، ومن جاهدن معه طوال سنين؟

تبتسم عشتار ابتسامة حيادية لا تُفصح عن شيء، ثم ترمي جملتها حجرًا في ماء راكد: ربما ليس جسدها فقط...

ثم تنهض، وتترك خلفها غيمة من التوتر والغيرة، والقرارات المتسرّعة. كل واحدة منهن بدأت تفكّر.

واحدة تذهب إلى خزانة ملابسها لتنتقي حُلّة جديدة.

وأخرى تفتح صندوق المجوهرات المهمل منذ أشهر.

وثالثة قالت لنفسها: لا يمكن أن تبيت تلك العاهرة وحدها في غرفة الضيوف ليلة أخرى.

تحرّكن بعد مغادرة عشتار، كل على انفراد كما تفعل الأفاعي بعد الافتراق لتلتقي في مكان الطريدة.

أم عبد الله، الأولى، الأكبر سنًّا، صاحبة الحظوة الأقدم، تستدعي الحارسة «جميلة» ببطء، كما لو كانت تستحضر شاهدة في محكمة. تسألها ببرود ساخر يخفي تحت سطحه جمر الغيرة: من يدخل على تلك السبية؟ ومن يخرج؟ وهل تنام في السرير أم على الأرض؟

تتردّد جميلة، عيناها تهربان من نظرة سيدتها، لكن القسوة التي تشعّ من وجه أم عبد الله تجبرها على الإجابة. تقول بصوتٍ خافت: لم يحدث شيء... لقد أمسكت بيده وقبّلتها.

تضحك أم عبد الله ضحكة قصيرة مريرة، ثم تعضّ شفتها كمن يبتلع غصّة. تهمس بتهكّم مشوب بالحقد: هذه لا تخاف الله... تعرف الطريق إلى القلب قبل الجسد، وتعرف أنّ الرجال يُقادون بأوهام الوعد أكثر مما يُقادون بالوصال.

أم مصعب، الأصغر بينهن، المدلّلة، تتظاهر في البداية بأنها لم تهتم. لكن ما إن يبلغها الخبر حتى تجلس أمام مرآتها، تمسك قلم الكحل، وتبدأ ترسم حول عينيها خطوطًا أكثر سوادًا مما تحتمله، ثم تقول بنبرة لاذعة وهي تحدّق في انعكاسها: لو يريد الأمير جسدًا،

لوجد مئة مثلها... لكنها الآن تلعب، وأنا أكره من يلعب مكاني.

أما الثالثة، أم حسّان، أخت الرجل النافذ في التنظيم، الخبيرة بالنفوذ وإجادته أداة ضغط وسيطرة، تغلق على نفسها باب حجرتها، وتستدعي رسولًا مسرّعًا إلى أخيها. تملي عليه رسالتها بصوت مشحون: هل تقبل أن تُهدر هيبتي في بيتٍ أنت ساعدتَ في بنائه؟ سبيّة، كافرة، تأخذ مجلسي! افعل شيئًا... لكن دون أن يُقال إنني طلبت.

وأما الرابعة، أم محمد، فهي مختلفة. تجلس ساكنة، باردة الملامح، لا تُظهر شيئًا، تسعى الى تحوّيل الغيرة إلى صمتٍ جليدي، يختزن أكثر مما يُقال.

.....

كل شيء يجهَّز: رائحة المسك والعود تتصاعد، والحراس ينسحبون مبكرًا. وتوزَّع الشموع بعناية، لكنه هو... يقع في حال ارتباك، كصبي في أوّل عرس له.

ظهرتُ مرتدية ثوبًا يشبه أقمشة العرس الكردية، تكفّلت عائشة بإحضاره. بلا زينة، ثوب يعطي الجسد الناصع من تحته مجالًا للتكلّم.

نظرتُ إليه، فابتسم كالمذهول، وقال:

- لا أدري... كأنكِ جئت من خارج هذا الخراب كله.

يقترب قليلًا، ويمدّ يده ببطء، كمن يطلب الإذن للمس. فقلت بهدوء: ألم يمنحني الأمير سماحًا؟ لأكون عطره هذه الليلة، وماؤه، ومحرابه.

يسرع في الاقتراب أكثر، يضمّني كمن يريد أن يهرب بي من العالم.

لم أتمرّد، على عكس طبعي في كل حفلات الاغتصاب التي أقيمت من قبل، تحرّكت في حضنه هذه المرّة. أسندت رأسي على صدره، وقلت بصوت ناعم كالهامس: قل لي... متى كانت آخر مرة شعرتَ فيها أنك إنسان، لا أميرًا؟

يتفاجأ بالسؤال، لم يُجب، فأكملت: الرجال لا يُمسكون بالسلطة، بل هي تمسكهم... تشدّهم، تخنقهم. عندما تكون معي... اتركها. كن فقط... رجلًا يريد امرأة.

يغمض عينيه، وكأنّ شيئًا انكسر فيه.

يترك السيف جانبًا، ينزع حزام الذخيرة.

يجلس إلى جانبي التصاقًا، كمن يذوب في حضوري. هذه الليلة ليست ليلة جسد فاحش، إنها احتضان ناعم، ملامسة محسوبة، ضحكة خفيفة عند أذنه، قبلة بطيئة على عنقه. حتى الهمس يصير سلاحًا: تعال إليّ كلما أثقلوك بالخوف. أرح سرك عندي... لن يسمعك أحد.

وبينما هو ذاهل، غائب عن إدراك ما يجري، أبدأ في زرع خيوط السيطرة، خيطًا بعد خيط. وفي لحظة ما، قبيل أن يأخذه النعاس، يتمتم بصوتٍ مبحوح: لا أريدكِ سبيّة... أريدكِ ضيفة دائمة.

أبتسم، أرفع الكأس إلى شفتيه، أسقيه قطرة ماء كما لو كانت وعدًا، وأهمس: أبقني... وسأجعل العالم من حولك أجمل.

يغمض عينيه، يستسلم للنوم، بينما أظل مستيقظة، أراقب كيف يبدأ الفخ بالانغلاق ببطء حوله.

ومن تلك الليلة، لم يُرَ الأمير خارج جناحه إلا قليلًا. يؤجّل الاجتماعات، يرفض السفر، ينفعل حين يُطلب منه عقد لقاء.

وفي كل يوم، كنتُ أغذّيه بجرعة عشق... تقطع من هيبته مقابل كل لمسة.

لكن وراء الأبواب، لم يكن أحد يعرف:

هل كنتُ أزرع فيه حبًّا، أم أستدرجه إلى هاوية؟

هل سأنجو إذا اكتشف لعبتي؟ أم أنّ اللعبة ستبتلعني معه؟

كل شيء صار معلقًا بين ليلة وأخرى، بين خطوة يخطوها نحوي، وخطوة قد يبتعد بها عن عرشه.

***

(١٠)

ليست الحرب وحدها ما يهزمهم، بل الجسد يكون فاعلًا هو الآخر. كثيرون من أولئك الذين يحملون السلاح ويرفعون الشعارات، ينكسرون أمام لحظة ضعف غريزي. قادة يظنّون أنفسهم فوق البشر، فإذا بهم يسقطون أمام امرأة، أمام نظرة، أمام لمسة تُربك حساباتهم كلها. الغريزة التي يظنّونها ملكًا لهم تتحوّل إلى خيط يشدّهم نحو الهاوية، كما حصل مع الأمير الذي ومنذ تلك الليلة التي انسَلَّ جسده فيها إلى جواري كما ينسلّ الرمل من كفٍّ أرهقها الزمن، تغيّر كل شيء. كأنّ الحرب تبدّلت مبادئها وأدواتها، لم تعد الحاجة فيها قائمة للأسلحة النارية، بعدما صار الجسد هو الميدان القاتل، وصار صوته حين ينطق اسمي أوّلَ اهتزاز في جدار السلطة.

لم يكن يدري أنّ كل تنهيدة أنتزعها منه أخبّئها كسهم في جعبتي، وأنّ كل استسلام في عينيه يضيف لبنةً إلى صرح سقوطه القادم. ألمسه كعاشقة، وأبتسم كحبيبة، وفي داخلي أعدّ الأيام كما تعدّ امرأةٌ صابرة مكرَها، وأنتظر اللحظة التي ينحني فيها طوعًا، واهمًا أنّه انتصر، بينما هو ليس إلا فريسة في شِباكي.

في الصباحات التالية، أضحك له وعليه، وأتعمد رفع وتيرة صوتي كي يسمع الجميع ما أقوله. أصفه بأنّه يليق به أن يكون شاعرًا، لا لأنه

يتكلم، بل لأنه يفعل بالكلمات ما يفعله لمسًا. أستفيض في الحديث عن قوته التي تتوارى خلف ابتسامته، وعن يده التي تثقل ثم تخفّ، كأنها تعرف سر جسدي. أسأله من أين تأتي كل تلك المعرفة، وقد كان بين ذراعي وردة تتفتح على أنفاسي، ترتجف ولا تقاوم.

أقول له أيضًا إنّه حين ينحني نحوي يتوقف العالم برمّته كي يتركنا وحدنا، وإنّ في صوته عاصفة وفي صدره جنّة، وإنني بين العاصفة والجنة مسجونة محتارة، كيف أفسر للآخرين أنه يجرحني ويداويني في اللحظة نفسها، أنه يسرقني من نفسي بينما أضحك مسرورة بالسرقة. أؤكد له أنّي حين يقترب أشعر أنني أنكشف كلّي، أنني ورقة عارية بين أصابعه، لا تريد أن تُفلت، ولا تجرؤ أن تنفلت.

وأختم بأنّي أرى أنه لا يليق به أن يكون إلا شاعرًا، أو ربما قصيدة غرام لا تُقرأ على مسامع خليلة، بل تُهمَس في العتمة لتشتعل بها امرأة واحدة... أنا.

ينتشي... ثم يبتسم، يتخيل أنه يُمنَح حياة لم يتذوّقها من قبل، حياة تُسكب في دمه من همسة، من نظرة، من لمسة عابرة. لكنه لم يكن يدري أنّ يديّ كانتا تمسكان خيطًا رفيعًا، أشدّه ببطء... ببطء، حتى إذا التفت، وجد نفسه يقترب أكثر مما أراد، وأنّ روحه صارت أسيرة لعطر لا فكاك منه.

في إحدى الليالي، يُترك الباب مواربًا، كأننا نسيناه، أو ربما أتركه أنا

عامدةً. نضحك، ويشبّهني بابنة الجبل التي تحمل في داخلها نارًا لا تطفئها الحرب. أرفع صوتي فأردّ بأن جسده لا يليق به إلا العناق، وأن الله رزقني سكينة حين ينام على صدري، طفل ضلّ الطريق فاطمأن.

تمرّ خطوات امرأة، يعقبها سكون ثقيل... ثم يبدأ التسريب.

وفي اليوم التالي، تهمس إحدى زوجاته لغريمتها أنّ السبية تنشده ليلًا كما لو كان عريسًا، ومن بعده بيوم يخرج من الغرفة فجرًا شبه عارٍ، بقميص داخلي، شعره مبعثر، كمن خرج من نكاح لا نهاية له، يسأل عن الحارس الذي تأخّر بالماء. ولم يدرك أنّ ابنه البكر يقف في الظل يراه، ولا أنني خرجت خلفه، أضحك ناعسة وأذكره بصوت عال قد نسي عباءة وقاره.

يتناولها بارتباك في محاولة يائسة لأن يتماسك، ولحظتها أيقنت أنني بدأت أول خطوات نزع الهيبة، كما ينزلق الرداء عن كتفيّ أميرٍ غفا على عرشه.

وفي ظهيرة أخرى، أمرّ بقربه وهو يخاطب رجاله، فأرمقه بنظرة وأتعمّد أن أجهر بكلام يوحي أن حديثه عن الجهاد أيقظ فيّ التوبة، أو ربما أثار شوقًا إلى درسٍ آخر يمتدّ حتى صلاة الفجر. ينظر اليّ يدرك أن كلماتي تقرع بابًا آخر غير باب العبادة، لكنه، رغم سلطانه، لم يجد ردًّا يواجه غواية الهمس. فهذه حرب من نوع مختلف، وأنا وحدي من يرسم ميدانها.

يختنق أحد الحراس بضحكته، ثم يتظاهر بالسعال. لم يوبّخه الأمير، ولم يوبّخني، اكتفى بابتسامة كمن ضُرب ولم يشعر.

حين غاب في نومه تلك الليلة، راح يتقلّب، يهمهم باسمٍ ما، ربما أمّه، ربما ظلًّا قديمًا من زمن البراءة. وفي صباح اليوم التالي، قلتُ بصوتٍ يصل حيث يجب أن يصل: يبكي الأمير في نومه أحيانًا... كطفل خائف، حتى ناداني البارحة باسم غريب، لا أعرفه.

أوقفت النسوة حديثهنّ، صمتن أمهات أولاده، كل هؤلاء اللواتي كنّ يتهيبن ظلّه، رأينه الآن... رجلًا تملكته امرأة، لا أميرًا تملكه الدولة. ثم همستُ في داخلي: هكذا تبدأ الهزيمة من همسة في فراش، لا من طعنة في الظهر.

كنت أريد أن يتفتّت ببطء، لا بضربة واحدة، وإنما بانزلاق يومي في الحضيض، لأن الميتة السريعة لا تليق بمن تاجر بكل هذه الأدوات المصمّمة للموت.

في تلك المواقف لم أعد بحاجة إلى التجسّس لإدامة خططي، فجدران البيت القائم للأمير تنقل الكلام أسرع من الريح. وما إن بدأ يُمضي الليل كلّه في غرفتي، ونصف النهار مستلقيًا عند قدميّ، حتى بدأت النار تتّسع رقعتها:

أم عبد الله، كبرى نسائه، أوّل من نوه في العلن أنه جاء بيّ من غنائم الحرب، فصرت حاكمته.

ترفع صوتها أمام الحراس عمدًا لتقول: أنسيتم أنّ السبيّة لا تُملك، بل تُؤدّب؟! أم صارت شريعة الله ألعوبة بين فخذَي امرأة؟

وما هي إلا أيام قليلة حتى اجتمعت النسوة الأربع عند قارئة قرآن مسنّة، تتلو عليهنّ آيات الطاعة والغيرة، وتذكّرهنّ بأن: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، وبأن الإمارة لا تُدار بالفرج».

وفي تلك الأيام، وُلدت المكيدة بسلاح الفتوى الأخطر من فعل السمّ وغرز الخنجر، إذ خرجت إحدى الضرائر إلى السوق قاصدة «مضافة النساء» في الحسبة، وسألت علنًا، وبصوت مكسور: هل يجوز لرجل أن يبيت عند محظيته أسبوعًا... ويهجر نساءه؟

وسرعان ما تناقلتها الألسن: «هجر الأمير زوجاته الأربع من أجل سبيّة!»

ثم أضاف لها البعض: «لقد أصبحت الإمارة في خطر.»

وسأل البعض الآخر: هل أصبح مجلسه يُدار من مخدعها؟!

ثم جاءت الضربة: رجل في منتصف العمر، سبق أن نافس على الإمارة، كتب منشورًا وزّعه خفية: «من أهمل حريمه، سقطت دولته، ومن أخذ السبيّة دينًا، فقد باع الشريعة بالهوى، وما من بيت يُهدم إلا حين يتسلّقه فرج امرأة».

كتب المنشور بخطّ لا يشكّ أحد أنّه قادم من الأقربين.

لم يُذكر اسمي، لكن الجميع يعرف من هي «الفتنة». حتى

حراسه الشخصيون يبدؤون النظر إليه كما لو أنّ سيفه تهاوى في ساحة المعركة. وفي إحدى الليالي، يدخل عليّ مهمومًا، بلا وجه، بلا ابتسامة. أسأله بمشاعر لهفة مصنوعة عمداً عن سبب حزنه، فيجيبني بحزن مكتوم أنّهم قالوا عنه كلامًا جارحًا، وأنّ سلاحه بات يُتَّهم بأنّه صارم في الفراش، ضعيف في الديوان.

أبتسم وأقترب، أضع يدي على صدره مطمئنةً، وأخبره أنني سأعيده كما كان، شرط أن يدعهم يظنون أنه قد وقع، ثم ينهض من حيث لا يتوقعون. لكن في داخلي أردد أنّه لا حاجة لأن ينهض، فقد وقع بالفعل، وكسْره جميل لا يُجبر.

.....

لم يأتِ الخبر من إحدى زوجاته، ولا من شيخٍ له مكانة في الديوان. جاء من قيادة التنظيم، بصوتٍ جاف، فتوى لا تقبل النقاش، وأمرٌ غير قابل للتأجيل: «درءًا للفتنة، تُمنح السبيّة پيريڤان لمجاهدٍ من المستحقين، حسب الأولوية، ودون تأخير».

يبدو أنهم صاروا حريصين على أن تكون لهجتهم نهائية، فالفوضى التي سببتها أنوثتي الماكرة بدأت تهزّ تماسك الصفوف. يصلني القرار من فم حارسه الشخصي، الذي ينطق بصوت خافت أنني سأُسلَّم الليلة.

أرى الأمير بعد ساعة، مختلفًا عمّا عهدته، يدخل عليّ كمن تُنتزع

منه اليد التي صار يُبصر بها. يجلس عند حافة الفراش، لا يلمسني، يكتفي بأن يحدّق في وجهي وكأنه يبحث عن مكان يخبئ فيه ألمه. أعلّق بخفة مدروسة على حاله، مذكّرةً إياه بأنه كان يردد دومًا أنّه لا يُهزم.

لا يجيب، بل يمرر يده على لحيته التي غزاها الشيب، ويعترف بأنّه لم يُهزم يومًا في المعارك، لكنه لم يكن يعرف أن الهزيمة قد تأتي من جسد امرأة. ثم يسكت لحظة، قبل أن يضيف بصوت خافت أنّهم كانوا يهمسون عنه سرًا، أما الآن فقد صاروا يسخرون منه علنًا.

انتُزِعتُ من جناحه كما تُنتزع الغنائم من مهزوم، وسُلّمت إلى مجاهد من الصومال... شاب طويل، عابس، يرمق بنظرة شكّ لا شهوة.

أمّا هو، الأمير... فقد بدأ يختفي. لم يعد يظهر في المجالس. تراجعت قراراته. بات يمكث في زاوية بيته منزوع الظل.

تعود النساء الأربع إلى غرفهنّ منتصرات. لا إحداهنّ تناديه «مولاي» باللهفة نفسها. وفي أوساط المقاتلين، صار يُذكر اسمه مقرونًا بجملة واحدة: «ذاك الذي فتنتْه سبيّة.» حتى ابنه، عبد الله، بدا وكأنّه يكبر عليه فجأة. لا ينظر إليه بنفس الطاعة. وفجأة تعلو وجوه الحرس نظرة شفقة... لا مهابة.

في الأيام التالية، بلغني اعتزاله الإمارة، وإعلانه الحاجة إلى خلوة

دينية بقصد التوبة. لكنني أعرف الحقيقة... لم تكن توبة، كانت نكسة رجلٍ قوي، قَزَّمَتْه امرأة دون أن تقتله.

الدخول إلى بيت الصومالي، أو بالأحرى غرفته، كمن يُساق من قصرٍ مذهّب إلى قبرٍ بلا شاهد. لم تكن سوى جدران طينية متصدّعة، مائلة يتوقع سقوطها على ساكنها في أي لحظة، ورائحة كريهة تخنق الأنفاس. يقف في منتصفها، مرتبكًا، مائلًا بجسده أكثر من ميلان الحيطان، عيناه زائغتان، يخاف أن يرى نفسه في المرآة. تأمّلني طويلًا، دون أن يمد يده، أو يتقدّم. كأنما وُضع أمام امتحان لم يتدرّب عليه؛ هو الذي طالما روى عن جواز التمتّع بالسبايا في ليالي مقاتليه بصوتٍ يعلوه الزهو، يقف الآن عاجزًا أمام الحقيقة التي تجسّدت في جسدٍ يراه ولا يملك أن يقترب منه.

يجلس أخيرًا في الزاوية، بعيدًا، يهرب من ظلّي. أصابعه ترتجف على طرف سترته العسكرية، يضغطها ببطء كمن يخشى أن يتفتّت الجلد بين يديه. عيناه لم تعرفا أين تستقرّان: على الأرض التي تشهد على وهنه، أم على السقف المائل الذي يشبه روحه. قلتُ له بصوت بارد، خالٍ من أي دفء:

- هل أتيت لتغتصبني؟ مثل غيرك؟

يرتعش صوته حين يحاول الرد، لكن الكلمات تختنق في حلقه. يكتشف فجأة أنّ السؤال لم يكن موجّهًا له وحده، وإنما لكل ما

يمثّله، لكل الشعارات التي ينوء بها على كتفيه.

يسود صمت طويل، صمت يشبه بكاءً مؤجّلًا، صمتًا يفضح أنّ «المجاهد» الذي يرعب الآخرين بدا في تلك اللحظة أضعف من سبيّة، أضعف من جدار يتصدّع أمام العيون. أعدت عليه السؤال ثانية. يتراجع خطوتين، ثم يجلس على الأرض، تغمره طبقة من التوتر. يضع المسواك في فمه، ويتحدث عن الحلال والحرام كمن يخشى أن تلامسه يدي بالخطأ. أما أنا، فأقف أمامه بلا حجاب، بلا خجل، بلا دعوة. أغسّل شعري أمامه، أمرّ قربه، أختبر ضعفه. يتنهّد دون أن يبدي أي حركة، عيناه ناشفتان كأنهما غُسِلتا بماء حجر.

في أحد الليالي، تقتحم عشتار الغرفة فجأة. لا أعرف كيف حصلت على إذن، لكن دخولها يضيء المكان المظلم. لا تكثر من الكلام أمامه، فقط ترميه بنظرة ازدراء وتقول:

- حظيت بوردة ولم تقطفها، أم أنك خفت من الشوك؟

ثم تستدير نحوي، تميل عليّ، وتقول بصوتٍ حنون:

- پيريڤان، اشتقت لكِ... لمَ هذا الذبول؟

أضحك حين تزورني، ضحكة نصفها مرارة ونصفها فكرة. صارت تدخل أحيانًا بحجة تبادل «الملح» أو «الخبز»، لكن همسها لا يحمل إلا خططًا مبطّنة. تقترب مني وتنوه الى حديث عن هرب مشترك، عن توقيتات دقيقة تحسبها، عن خريطة ترسمها في عقلها كأنها تفتح

نافذة في جدار السجن.

تقول دائمًا إننا لا نهرب من بيتين، نهرب من تنظيمٍ كامل لا يرى في الحب إلا رجسًا، ولا يعترف إلا بالخوف. وفي إحدى زياراتها، أعبّر لها عن اقتناعي بأن نهرب معًا ونحرق هذا القفص سوية. تفهم قصدي، تدخل في ابتسامة منعشة وتصف ذلك بالجهاد الحقيقي. ومع ذلك يبقى السؤال يرفرف بيننا، طائر لا يهدأ، شكّ لا نجد له جوابًا: هل الصومالي الخائف مريض حقًا وغبي؟

أم أنّه يرى كل شيء ويسكت؟ أم لعلّه يخطط مثلنا بصمته، ويتركنا نغرق في ظنوننا؟

عشتار لم تعد تخشى شيئًا، تواظب دخول البيت في وضح النهار، تحت أعين الجميع. تأتي بثياب بسيطة، بحجابٍ مهلهل، تحمل في يدها قفّة فيها خبز أو بصل، وتحمل في عقلها خطة هروب تزداد دقّة يومًا بعد يوم.

نتهامس أثناء تنظيف الأطباق، أو حين الجلوس على الأرض وتبادل الحديث أمام النافذة، لتبدو الزيارة «نسوية بريئة»، وفي باقي الأوقات نرسم طريق النجاة. قالت بقدر من التفصيل: نخرج من البيت باتجاه عيادة الطبيب النسائية، وهناك في الخلف نلتقي رجلًا بسيارة سيساعدنا في عبور الحدود إلى إدلب، ومنها سيكون الطريق مفتوحًا إلى تركيا، وأكملت: صديقتي هناك تنتظرنا، بجوازين

مزوّرين، وتذاكر بحرية إلى أثينا، وفيها سنصبح لاجئتين، حرتين، عشيقتين... أحياء.

تتحدث وكأنها قرأت هذا الطريق من إنجيلها الخاص، وكأن البحر الذي أغرق الجميع سيعيدنا إلى الحياة.

ذات مساء، تمد يدها من تحت عباءتها وتخرج رزمة من الدولارات. تعلن أنّ هذا ما تبقّى من عمرها، وأنها خبّأته في قاع الأرض، لتحيا به، لا لتُدفن معه.

أمدّ نظري نحو الرزمة، ثم إلى عينيها. ليس لديها سوى جسدٍ مثقوب بالذكريات، وقلبٍ لا يعرف معنى الأمان، لكنها تملك الخطة والمال والإرادة. أسألها عمّا لو فشلنا، فتقترب وتضع فمها قريبًا من أذني، وتؤكد أنّنا إن فشلنا، نموت واقفات لا مقموعات.

وفي صباح اليوم التالي، تأتي بالتوقيت ذاته، وتؤكد أن الخميس تمام الرابعة والنصف هو موعد تبديل الحرس على أطراف الحي، وأن الصومالي يخرج إلى الدرس الشرعي بعد العصر، ولا يعود قبل المغرب. تشير إلى أنني سأتسلل مع صبية تأتي لتبيع المناديل، بينما هي تسبقني بخمس دقائق.

كل شيء يصير مرتبًا. حتى الأنفاس يمكن تحسّسها مجدولة على وقع هذه اللحظة. تمّ حساب كل شيء على إيقاع الهاجس: الطريق، التوقيت، الرداء، حتى عدد الخطوات بين باب البيت

والزقاق الخلفي. كل تفصيلة مشفوعة باحتمال الموت.

بعد ظهيرة ذاك اليوم، أجلس على الأرض أنظّف حفنة من الرز لإعداد العشاء، وأراقب الباب. يدَي ثابتتان، لكن قلبي ينبض بوقع أسرع، وداخلي يعدّ الثواني بقلق. وفي تمام الرابعة والربع، تخرج عشتار أوّلًا، بثوب أسود طويل وخمار يغطّي وجهها، وكيس خضار وهمي على كتفها. تمرّ بجانب الحارس كأنها ذاهبة إلى بيت إحدى النساء، تتبادل معه تحية سريعة، ولا تبطئ.

أستمرُ بمراقبة ظلّها وهو ينسحب من تحت الباب، بعدها بدقيقتين، تصل «خولة»، طفلة صغيرة تبيع المناديل. تدخل وتدّعي بصوت مرتفع أنّها مرسلة من أمها التي اعتادت تنظيف البيت المجاور، وإن أمها تطلبني لأمر بسرعة.

أرفع طرف عباءتي على عجل، أتهيأ للاندفاع نحو الباب. خطواتي ثقيلة رغم أنني أحاول أن أجعلها خفيفة، وكل نفسٍ أسمعه من صدري أتأمله يسبقني إلى الخارج. أمدّ يدي إلى المزلاج، ثم أتوقف فجأة. ارتجاف داخلي يذكّرني بما نسيت: أوراق المرور لو بقيت خلفي لفضحت كل شيء.

أتراجع خطوة إلى الداخل، ارتطم بجدار من القلق. أفتح الصندوق الصغير عند طرف الفراش، أنبش ما فيه بسرعة متوترة، أجد الأوراق تحت قطعة قماش بالية. أصابعي ترتعش أكثر وأنا أطويها وأخفيها

في وشاح رث أضعه على كتفي.

خارج الغرفة، ما زال صوت الطفلة يذكرني أن أمها في الانتظار.

أغلق الصندوق بعنفٍ خفيف، وأمسح على جبيني كمن نجا من فضيحة. أقترب من الباب من جديد، لكن خطواتي صارت أبطأ، يدي باردة على المزلاج، وعقلي يهمس: هل أخرج الآن فأكمل طريق الخلاص؟ أم أن هذه اللحظة بالذات ستفتح بابًا آخر... على الهلاك؟

***

(١١)

في تلك الساعات الثقيلة لما قبل الغروب، بدا كل شيء معلّقًا بين هواجس الخوف ونبض الرجاء. الجدران صارت خلالها أكثر صمتًا، والوقت أبطأ من العادة، كأن عقارب الساعة تعاند، تذكّر أن كل تفصيلة من هذا اليوم قد تُكتب بدم أو بعبور. الهواء نفسه، يضغط على صدري بوقع الانتظار. لم يبقَ مجال للتراجع، فالخطط التي حيكت على مدى أشهر تُختبر الآن، على خيط رفيع يفصل بين النجاة والهاوية.

أتلمّس عباءتي السوداء، أثبّت الخمار فوق وجهي، وأشعر بأنفاسي تختبئ خلفه. تحت العباءة سروال يشد جسدي ليمكنني من الجري إذا استدعى الأمر. أضع وشاحًا رثًّا على كتفي، أُخفي في طياته أوراق المرور المزيفة تلك التي سلمتني إياها عشتار قبل يوم.

الحارس القريب من البيت منشغل بهاتفه النقال، يغيب عني في شاشة زرقاء صغيرة، وأنا أجرّ خطواتي الوادعة كمن يعرف المكان منذ زمن. في داخلي شعور يشبه من يسير إلى تغسيل الموتى؛ وئيد، ثابت، لكنه مغموس بارتجاف الروح.

وفجأة، قبل الوصول إلى الزاوية، يخرج شاب لم يغادر الصبا بعد من أحد الأبواب، يبدو مستعجلًا، وربما ملاحقًا، يصطدم بكتفي.

يسقط الوشاح وتتبعثر أوراق المرور على الأرض. للحظة، يحدّق بوجهي في محاولة لقراءة ما خلف الخمار، وأنا أرتجف خشية أن يشك في الأوراق ويكتشف ما بداخلي أو يجذب انتباه الحارس. الوقت يتوقف. يتصاعد صوت في داخلي يصرخ: ارجعي! ما زال بوسعك الانسحاب! لكن صوتًا آخر، أعمق، يضغط عليّ بقوة: إمّا الآن، أو لا خلاص أبدًا.

أنحني بسرعة، ألملم ما سقط، أتمتم بكلمة عابرة، ثم أتابع طريقي كأن شيئًا لم يحدث. الخطوة التالية أشبه بعبور جسر من زجاج، هشّ لكنه حتمي. عند الزاوية، أجد عشتار بانتظاري، تقف كما لو أنها غريبة عني، وأنا بدوري لا أُبدي معرفة. نتماشى صامتتين، حتى نصل إلى المكان المتفق عليه عند العيادة النسائية. هناك باب حديدي صغير نلجه، لنجد خلفه ساحة ترابية تترقبنا.

في طرف الساحة، ينتظر الرجل. هيئته تشي بأنه أحد أبناء الريف السوري المنسي؛ يلف جسده ثوبٌ رمادي باهت، وعقال مشدود على رأسه. تبدو أطراف ملابسه مرقّعة، شهدت أعوامًا من العوز، على وجهه سُمرة مشوبة بغبار الطرق، وفي عينيه انكسار لم يطفئ حذره، رجل دفعته قسوة العيش ليبحث عن رزقه بأي وسيلة، حتى وإن كان الطريق محفوفًا بالريبة والخطر. فالحصول على المال في دولة الخلافة ليس أمرًا يسيرًا عبر الطرق المعتادة، فتجارة السوق ضاقت،

والعمل الشريف صار رفاهية بعيدة المنال.

بجواره سيارة قديمة مهترئة، لونها الأصلي كاد يختفي تحت طبقات من الصدأ والخدوش. لم تعد تلك العربة تصلح لنقل الركاب كما خُلقت أول الأمر؛ حوّلها بجهده إلى وسيلة لإيصال رزم الخبز من الأفران إلى المطاعم وإلى مقرات المجاهدين. المقاعد الخلفية منزوع بعضها، والجوانب متآكلة، لكن عجلاتها لا تزال تدور بصبرٍ كصاحبها، تتشبث بما تبقى لها من حياة.

نتبادل نظرات سريعة لا تقول شيئًا، لكني شعرت أن عينيه تعرفان أكثر مما يبوح به لسانه. كان وجوده هناك جزءًا من اللعبة، قطعة أخرى في رقعة الخلاص التي نسعى إليها.

نتقدّم ببطء نحو السيارة، خطواتنا غارقة في التراب. يفتح الباب الخلفي، ويشير برأسه دون كلمة.

يصعد أولًا ليرفع بعض الصناديق الكرتونية المتراصة، يفسح لنا مساحة ضيّقة بين الرزم. يفرش بطانية قديمة ذات بقع باهتة، ثم يومئ لنا أن ننزلق بسرعة. أستلّ جسدي بحذر وأزحف إلى الداخل، تلتحق بي عشتار، نتقوقع بين الصناديق المتلاصقة. ملمس الكرتون خشن ورطب قليلًا من أثر العجين، لا يزال يحتفظ بعرق الخبازين وحرارة التنور.

تفوح رائحة الخبز بقوة، تخترق أنفي وتعيدني إلى هناك... إلى

بيت الأهل في شنكال، حين كانت أمي تقف قرب التنور. أراها أمامي، كفّاها مغطّيان بطبقة من الطحين، وجهها يتصبب عرقًا وهي تعجن برشاقة، كأنها ترسم بالأصابع على عجينة الحياة، كنت أقف بجوارها أراقبها بدهشة، وفي لحظة شاردة دفعتُ العجين الصغير الذي حاولت أن أصنعه بيديّ الطفلتين، فألتصق بردائها. ضحكت يومها، وقالت وهي تمسح يدي: الخبز يا بُنيّة لا يكتمل إلا باليدين معًا... يد تصنع، ويد تحمي.

تغمرني تلك العبارة الآن، بينما أحتضن نفسي بين صناديق الخبز، أبحث في الرائحة التي اقترنت بالتنور عن يد أخرى تمتد لتحميني.

الباب يُغلق بعنف، ينقطع الضوء، ويظلّ صرير الحديد آخر ما نسمعه قبل أن يسود الظلام. نتبادل أنفاسًا مضطربة تحت سقف الكرتون، والسائق يتهيأ للصعود إلى مقعده. لحظة صامتة تسبق هدير المحرّك، هي الفاصل بين ذاكرة الأمس، وجحيم الطريق القادم.

.....

وفجأة، ينقطع صوت پيريڤان. يهتز بيت شيرين بشكل مباغت، يليه دوي انفجار قريب. تتسع عيناها في ذعر، ينسحب لونها، وتنهض مذعورة كأنها عادت للحظة إلى أجواء الرقة. تتجه مسرعة نحو السرير في زاوية الغرفة حيث ينام رامي، تجثو فوقه بذراعيها تريد

أن تغطيه بجسدها كله، درع حيّ يخفيه عن أي أذى.

تهدّئها شيرين وهمسها يرافق الطمأنينة، مؤكدةً أنّ ما تسمعه ليس إلا قصفًا بعيدًا. تمسك بكتفيها وتربت عليهما، ثم تشرح بصوت خفيض كي لا توقظ الصغير: أنّها أصوات الطائرات التركية وهي تضرب مواقع حزب العمال الكردستاني، وأن الأمر يتكرر بين حين وآخر، وأن البيت هنا آمن والمقرات بعيدة نسبيًا.

لكنها ما تزال ترتجف، تتنفس بسرعة، وتلتفت إلى رامي لترى وجهه قبل أن تمرر كفها على شعره حتى يستكين مجددًا في نومه. تنهض ببطء وملامحها ما زالت مبللة بالذعر، ثم تجلس قبالة شيرين وتبتلع ريقها قبل أن تهمس بصوت متقطع تسأل فيه أين وصلا. فترد شيرين بنبرة واثقة تحاول أن تعيدها إلى مجرى الحكاية، مذكّرة إياها بأنها كانت تقول إنهم صعدوا إلى السيارة قبل أن تتحرك.

تغلق پيريڤان عينيها لوهلة، كأنها تُجمع شتات اللحظة، ثم تفتحها من جديد وتعود بذاكرتها إلى هناك...يمضي الطريق الأول نحو أطراف الرقة القديمة. السيارة تتسلل عبر دروب الحارات الخلفية. عشتار تتابع بإحساسها كل منعطف، والسائق يضغط على دواسة البنزين بحذر مدروس. حتى الآن، كل شيء يسير كما تريد عشتار... حتى الحواجز؛ يتكدّس شباب التنظيم عند بعضها، أسلحة متدلية على أكتافهم، أصواتهم تعلو بالسباب والتهديد، لكنهم منشغلون

بمداهمة على الطرف الآخر. يمرّ السائق ببرود مصطنع، يرفع يده بتحية عابرة، ثم يمضي. لا أحد يطلب تفتيشًا، ولا أحد يلتفت إلى صناديق الخبز المكدّسة في الخلف.

على جانبي الطريق، بيوت تبدو كأشباح من طين وحجارة، جدرانها مهدّمة أو مثقوبة بالقذائف. وفي الجانب الآخر يمرّ قطيع من الماعز يتناثر في الغبار، تتبعه طفلة حافية تحمل عصًا أطول من جسدها. عند بئر مائل، تقف امرأة منقبة ترفع دلوًا من الماء بصعوبة، يتدلّى على كتفها طفل صغير يجهش بالبكاء.

حين ندخل إلى الريف، خارج مدينة الرقة، أشعر أن قلبي بدأ يبرد. هناك ظلّ يسبق الضوء في خطوته الأولى إلى المجهول. لم يعد الهواء مرًّا كما في البداية، لكن الخوف يبقى حاضرًا، حادًّا كالسكين. أعلم أن الرصاص في هذه المناطق قد يأتي من أي طرف: من المهربين المتربصين، من حراس الحدود الطامعين، أو من خيانة صغيرة تُشترى بأقل من مئة دولار.

يحلّ الليل على الطريق. العتمة تغمر الريف، والهواء يبرد، يتكثّف على الأجساد المرهقة. السيارة تتوقف عند بيت طيني متداعٍ على طرف القرية، جدرانه متهرئة، وسقفه مغطى ببقايا قصب وقش. يترجل السائق، يطفئ المحرك، ثم يفتح الباب الخلفي ويشير لنا بالنزول. هنا يبلغ دوره النهاية، كما تنصّ الخطة. يودّعنا بلا كلام

زائد، ويعود أدراجه في صمت.

في الداخل، نُستقبل بوجه رجل أعمى. عيناه غائرتان، ملامحه هادئة. رائحة التراب والرماد تملأ الغرفة الضيقة التي يؤوينا إليها. لا شيء سوى حصير بالٍ على الأرض، ومصباح زيتي واهن الضوء. نتمدد على الحصير، نتحسس جفافه وخشونته تحت أجسادنا، ونصغي إلى أنفاسه البطيئة وهو يتحسس طريقه في البيت. أسمع عشتار تهمس لي: لقد سلّمته مسبقًا مائتي دولار.

أقول في نفسي: مائتان... ثروة ليست قليلة هنا.

يبدو الأعمى ممتنًا، يكرر كلمات قصيرة متقطعة وهو يلمس جدار الغرفة بعصاه. لم يكن يملك إلا صمته، وذاك البيت الفقير الذي يفتح لنا بابه لليلة.

نقضي الليلة في البيت وحدنا. نجلس على حصير خشن، نتقاسم خبزًا تبرع به صاحب السيارة، ونشرب ماءً مالحًا كأنه يخرج من باطن جرح قديم. ومع ذلك، نضحك ضحكًا مختلطًا بالرهبة، يخرج من أعماق القلب لأول مرة منذ سنين طويلة. إنه ضحك يذكّرنا أننا لا نزال على قيد الحياة، قادرون أن نتشارك لحظة بشرية حقيقية.

في الصباح، ينداح الضوء من شقوق الباب الخشبي. نستيقظ على صياح ديكة وبكاء أطفال في بيوت بعيدة. نستعدّ للمرحلة التالية. عشتار تدفع لسائق سيارة أجرة قديمة، طلاءها متآكل،

ومقاعدها ممزقة، تنطلق بنا نحو نقطة تهريب المشاة، حيث سنلاقي «الحاجة أم وائل».

هي امرأة أرملة، تجاوزت الخمسين، هيبتها تفوق جسدها. تخرج إلينا ببرقع أسود يخفي وجهها، تفوح من فمها رائحة النعناع الممضوغ. خطواتها ثابتة، يداها مشدودتان، ومن تحت عباءتها يلمع مقبض مسدس صغير، كظل يلازمها.

بعد أن تقبض مقدم الأجر — ألف دولار كاملة — تحدّق فينا طويلًا، ثم تقول ببرود مقيّد بالتهديد: إذا شعرتم بالخوف، يمكنكم الانسحاب الآن. لكن من يتراجع بعد هذه النقطة... سأقتله بنفسي.

كلماتها تسقط كرصاص على الأرض، حادة، لا تقبل تردّدًا. أشعر لحظتها أن الطريق الذي نمضي فيه لم يعد مجرد خط هروب، وإنما امتحان قاسٍ للجرأة، للقدرة على مواجهة موت متربص في كل زاوية. نمضي والرياح السريعة تمهّد لنا الطريق، خطواتنا تخترق الحقول والدروب الوعرة، لكن شيئًا في الهواء يلين، يومئ أن الحياة تقف إلى جانبنا، يشعرنا أننا نواصل الطريق على خريطة سرّية لروحَين ممزقتين، تتسللان معًا بين الشوك، والذئاب، والرجال الذين لا يشبهون البشر إلا في قسوتهم.

في الصباح التالي، مع الحاجة أم وائل، يبدو لنا وكأن العالم يقرر أن يفسح لنا مجالًا صغيرًا كي نتمرد بمزاجنا. عشتار تدفع ألف

دولار أخرى باقي الأجر، بيد ثابتة لا ترتجف. ثم نمضي معها فوق الحقول مشيًا، أقدامنا تغوص أحيانًا في الطين، وأحيانًا تعلو فوق بقايا قيدٍ ينكسر، كأن الأرض نفسها تريد أن تبتلع ماضينا لتتركنا نواصل الطريق.

ونحن على الطريق نتوقف بقصد استراحة قصيرة، لعلها تخفف عنا شيئًا من عبء المشي المتواصل لساعات ثقيلة... هناك، تصل سيارة لا نتوقع قدومها. ليس ذلك جزءًا من الخطة، إذ نحن متفقات أن نكمل السير على أقدامنا حتى نبلغ الجرف الغربي، حيث المعبر المخفي لتهريب المارقين وطالبي الحرية والانعتاق من قبضة حكم الخلافة الإسلامية إلى تركيا.

أبدو مستغربة، لكن أم وائل تبادر بالكلام قبل أن أنطق، موضحةً أن الدروب اليوم تحت رقابة مشددة، وأن أبا طلحة سيأخذنا بسيارته إلى الجرف بسرعة عبر طريق جانبي أكثر أمنًا. تطمئننا ألا نخشى دفع المزيد من المال، فقد سدّدت الأجرة من حصتها تقديرًا لنا، سيدتان تفتشان عن الحرية.

ندخل السيارة بنفسٍ قلق وتوترٍ عالٍ، حتى تنز كفاي عرقًا، وألتفت إلى عشتار أسألها بعينين مرتجفتين: من هذا؟ هل تعرفينه؟

ليس السؤال مجرد فضول؛ إنه محاولة يائسة لمسك خيط الطمأنينة وسط هذا الفراغ المظلم. أشعر أنني أُسلِم نفسي إلى مصير

غامض لا قدرة لي على تغييره، وإن كل من حولي يتآمر على قلبي ليدفعه إلى الحافة: ارتعاشة أصابعي، برودة قدمي، دوي المحرك الذي يبدو لي أشبه بقرع طبول تنذر بمعركة لم أختر خوضها، تبدو فيها عشتار أكثر هدوءًا مني، ومع هذا يلوح في عينيها انكسار لا يخفى عليّ. تهزّ رأسها مشيرة الى أن أم وائل تثق فيه.

أشعر حينها أن الثقة نفسها تتحول إلى امتحان. هل أستطيع أن أستعير من أم وائل يقينها؟ أم أظل سجينة شكوكي؟ أستعيد وجوه الذين رحلوا ولم يعودوا، وأطرد صورًا قاتمة لسيارات مشابهة سارت على طرق مماثلة، ولم يُعثر على ركابها.

يرتجف صدري، وأقول في سري: الحرية هي الأثمن... ثمنها الخوف، وربما الموت.

في تلك اللحظة، أسمع دويّ المحرك يعلو، ينذر بمصير مجهول. الطريق خارج النافذة يبدو ضيقًا ومشوّشًا، تتناثر فيه الحجارة وأطياف الخوف، بينما أجلس أنصت إلى نبض قلبي الذي يطرق صدري بعنف. أحس أن السيارة تتحول إلى قفصٍ معدنيّ، كل اهتزازة فيه تعمّق اختناقي. لم يعد الزجاج مجرد نافذة تطل على الخارج، صار حاجزًا بيني وبين الحياة. أسأل نفسي: هل نحن في طريق الخلاص فعلًا؟ أم أننا نندفع إلى فخ لا مخرج منه؟

أنظر إلى وجه رفيقتيّ. عشتار متماسكة ظاهريًا، لكن أصابعها

المشدودة إلى ثوبها تفضح ارتباكها. أما أم وائل، فتجلس واثقة، كأنها تسلّم أمرها لقدرٍ تعرف ملامحه أكثر منا. في داخلي يكبر الخوف مثل ظلٍّ أسود يتمدد مع كل كيلومتر نقطعه، ومع ذلك، يظل هناك بريق صغير من الأمل يهمس: ربما نعبر هذه المرة.

تمرّ خمس دقائق يقارب وقعها سنة. يفتح أبو طلحة مذياع سيارته على نشيد جهادي يصدح بصوت مرتفع جدًا، يريد أن يغرق أنفاسنا في صخب لا مهرب منه، ثم يوقف السيارة جانب الطريق.

تنظر عشتار عبر النافذة، فتكتشف أن الطريق ليس مألوفًا لها: لا مزارع، لا منازل، فقط أرض موحشة وصمت ثقيل يتناثر بين الحجارة والشجيرات اليابسة. ما تزال تفكر، حين يخرج فجأة من بين الحفر ثلاثة رجال. أحدهم هو الحارس الذي نعتاد رؤيته قريبًا من البيت في الرقة. عندها يجمد الدم في عروقي، كأنني أتحول إلى حجر بارد.

يُخرجوننا من السيارة بهدوء قاتل، بلا سلاح ظاهر، لكن غيابه لا يبدّد الرعب بل يضاعف غموضه. يتكلم أحدهم في جهاز لاسلكي بصوت جاف، مؤكّدًا أن الهدف تم التحقق منه، وأنهم في الطريق إلى المثابة المتفق عليها.

عشتار تنفجر صائحة، تكسر جدار الخوف، تتهم أم وائل بالخيانة وتحتج على بيعنا رغم أنها دفعت كل ما تملك. يلتفت إليها أبو طلحة بعينين تلمعان بالشماتة، ويسخر من غبائها مؤكدا أن تنظيم

الدولة لم يعد كما كان، إذ صار يراقب النوايا قبل الخطوات.

في تلك اللحظة، أشعر أن الكلمات تسقط علينا أثقل من الرصاص. أرتجف وأفكر: أيعقل أن الحرية لم تكن سوى وهم صنعناه لأنفسنا؟

في طريق العودة، يقيّدوننا بأصفاد بلاستيكية، ويضعون على رؤوسنا خُمُرًا سميكة تحجب كل ما حولنا. لا أعود أرى شيئًا، لكني أشعر بوجه عشتار قريبًا من وجهي، نَفَسها يلهث، ويداها ترتعشان. تهمس لي بصوت يتهدج: سامحيني... أخطأتُ في الثقة.

أجيبها وأنا أكاد أبتلع دموعي: لا... أخطأنا في الأمل.

يعيدوننا إلى الرقة عبر طريق جانبي. نمرّ قرب فرن الصمون، بجوار العيادة النسائية، ثم الساحة التي ننسلّ منها قبل يوم ونصف. لا أستوعب أن المكان ما زال كما هو: البيوت صامتة، الدكاكين مقفلة، والطرقات تبتلع صخب المدينة القديمة، شيئًا لم يحدث، كأن الحياة نفسها ترفض أن تعترف بمحاولتنا اليائسة.

لا مؤشرات في الطريق إلى السجن تنذر بالعاصفة. السكون مريب، والصمت يلتف حولنا حبلًا ينتظر أن يُشدّ. يداي مقيّدتان مثل يدي عشتار، لكن عيناي لا تُقيّدان أبدًا. أرى أبا طلحة يمشي أمامنا منتصرًا، جرّار يسوق قطيع خيبات إلى مذبحه. وفجأة، عشتار تلتقط لحظة شَرَخَت الغفلة، تنقضّ عليه. تقفز مثل لبوة جريحة، وتغرس

أسنانها في عنقه. يرتج المكان بصرخته، ويحاول أن يتخلص منها، لكنها تنهش بعنف أنثى أخيرة تحاول الانتقام للعالم كله.

وقبل أن يسقط، يخرج سكينًا من تحت حزامه، ويطعنها... مرة، ثم ثانية، وفي الثالثة، ينطفئ بريق عينيها فجأة، وتغرقان في سكون أبدي. ثم تسقط، وفي طريقها إلى الأرض، تطلق صرخة خيبة، وصوت خوفٍ أخير من الموت، يخرج منها ليملأ الفراغ من بعدها.

أركض إليها، والدماء تتسرب من فمها. أنحني فوقها. يأمرون بالابتعاد عنها، لكني لا أسمع أحدًا. أسمع همسًا... منها. شفاهها تبقى تتحرك، بصوتٍ لا يشبه الموت. أقترب أكثر، حتى يلامس وجهها أعلى وجنتي، فتهمس بصوت متقطع، يفهم اعتذارًا، وأنها هي من خذلتني.

أحاول أن أصرخ: لا... لا... لكن صوتي يضيع. وآخر ما تبوح به أنها أحبّتني، وأن الله يشهد أنها لم تعرف الحب إلا معي، وأنها إن ماتت فالحب هو من قتلها، لا الطعنة.

ثم تتنهد. عيناها تتشبثان بوجهي لحظة، ترسم ملامحي في آخر صفحة من عمرها. ثم ينطفئ الضوء في بؤبؤها، وينطفئ كل أمل داخلي في الخلاص من هذا السبي.

لا يقترب أحد. هم منشغلون بأبي طلحة الذي يسقط على الأرض يلهث، والدم يسيل بغزارة من شريان عنقه حتى أفقده وعيه. أبقى

معها، ووجهها بين يدي، كما وعدتها ذات حلم: أن لا تموت وحدها. لكن وأنا أضم رأسها، يعود السؤال الذي أطرحه يومًا في خلوة نفسي: هل يمكن للإنسان أن يعود...؟

في تلك اللحظة أدرك أن العودة الى الوطن لم تعد ممكنة؛ فالقدر يغلق أبوابه، ويجعل منها أمنية تتبخر مع أنفاسنا المتقطعة، حلمًا يذوب بين يديّ كما يذوب دمها في التراب.

***

(١٢)

قسوة جند الخلافة تُتَخذ أسلوب حياة، لا تُمارَس كأداة فحسب. كلّ من يقع في أيديهم يُعامَل بعين الشكّ، متآمر حتى يثبت العكس. التحقيق يتجاوز التفتيش عن الحقيقة الى الاستعراض المقنن للبطش والتفنّن في إيلام الجسد والنفس معًا. في دهاليزهم يقف الضحية متوجسًا من التعذيب القادم، فيما يزداد عطش الجلاد لانتزاع اعتراف يُختلَق عند الحاجة.

الألم النافذ يبدأ بعد انتظار التحقيق، أوّل ما يتعلّمه الجسد داخل جدران السجن. حقيقة أقتنع بها حين أُعلَّق من أطرافي ويبدأ الصعق بعصا كهربائية بين أفخاذي، ويُسكب الماء البارد عليّ فجأة... كي لا أغيب عن الوعي أو أنام. أشعر بالألم الذي جرّبته مرارًا وكأني أجرّبه لأول مرة، فيخرج من فمي شهقة لا تشبه صوتي المعتاد. لكني لا أصرخ، وهم لا ينتظرون صراخًا، وإنما «ندمًا» ملفّقًا.

يدخل المحقّق. شكله قوقازي، لا يبدو عاديًا ولا قاسيًا جدًا، لكنه مدرَّب على اقتلاع الحقيقة أو زراعتها. يقارب الثلاثين من العمر، عيناه لا تشيان بالغضب، ببرود غريب يضاعف الخوف في داخلي. يُكنّى «أبا خطاب»، يحمل دفترًا فيه أسماء مكتوبة بخط قاسٍ كحد السيف. يحدّق فيّ ويقول بلهجة متزنة كمن يلقي أسئلة محفوظة:

كيف هربتما؟ من معكما؟ ومن خطّط؟

أردّ في محاولة لأن أتماسك: لم يكن هربًا كما تظنون. يرتفع حاجبه ببطء فأكمل، مستجمعًة ما تبقّى من هدوئي: عشتار تريد الذهاب لزيارة معارفها في الطبقة، نساء مقاتلات، تبقى هناك فترة استراحة ثم تعود. أصمت قليلًا، أخفّض عينيّ، وأضيف بصوت يختنق داخلي: أنا فقط أرافقها، لا أعلم التفاصيل... صدّقني.

يتنفس ببرود، يترك الكلمات تترسب في صدري قبل أن يجيب: وهل كل من لديه معارف يهرب متخفيًا في صندوق خبز؟

أشعر برعشة تسري في داخلي، أتمسّك بهدوء مصطنع وأقول: وسيلة نقل هي الأرخص.

يرد بصرامة لا تعلوها نبرة غضب: لكنك لم تأخذي موافقة مالكك، وخرجت دون محرم.

أتنفس ببطء، وأستعيد تلك الليلة: كان غائبًا، وعندما عرضت عشتار الفكرة لم يكن حاضرًا، فاعتقدت أنه لا يمانع.

يسود صمت ثقيل. يطأطئ رأسه على الدفتر، يدوّن شيئًا بخط سريع دون أن ينظر إليّ، ثم ينهض ويخرج. الساعات التالية تمرّ كالدهر، حتى يصل القرار: إحالة إلى المحكمة الشرعية.

حين يُسمَع الحكم بالإحالة، أشعر أن الجدار بين عالمي وعالمهم ينهار. أنا ابنة ديانة لا تعرف محاكمات كهذه. في عقيدتنا الإيزيدية،

لا يُحاسب الإنسان بشرع الناس وإنما بشرع الخالق. يُقال إن الروح حين تفارق الجسد تواجه ميزان الحقيقة، لا سوط المحقّق ولا دفتر الأسماء. يُحاكَم المرء على نقاء قلبه، على صدقه مع نفسه، لا على انتمائه لفصيل أو طاعته لأمير.

في المحكمة الشرعية التي ينتظرونني فيها، يتحوّل الإنسان إلى متهم قبل أن ينطق بكلمة، ويُقرأ عليه الحكم قبل أن يُسمع دفاعه. أجلس هناك، محاطة بجدران خانقة ووجوه جامدة، وأفكر: أيُّ عدل هذا الذي يُوزَّع كما يُوزَّع العقاب؟ عندها يجرفني ذهني إلى ديانتي، إلى ما تربّيت عليه من يقين: أن لا محكمة للإنسان إلا أمام طاووس ملك، ولا عقوبة إلا ما يحمله المرء من ثقل أعماله، فأزداد قوة بالتمسك بها وعدم الندم على أفعال أقوم بها.

حين يجلسونني في الزنزانة الصغيرة بانتظار مثولي، لا أرى القضاة أمامي، بل أتخيّل قاعةً أوسع، فيها أجدادي وآلهة النور، أخشى أن أفقد ما تبقّى من نفسي بين أيدي هؤلاء الذين يزرعون التهم كما يزرع الشوك.

ثم يقتادونني إلى القاعة. ليست قاعةً بالمعنى الذي نعرفه، إنها غرفة حجرية واسعة، بلا نوافذ، تُضاء بمصابيح باهتة تتدلى من السقف. في صدر القاعة أو الغرفة يجلس القاضي على كرسي خشبي مرتفع، تحيط به رايات سوداء مكتوب عليها شعارات لا

أفهمها. خلفه جدار عارٍ إلا من بندقية معلّقة، كجزء من الحكم قبل أن يُتلى.

جنود الخلافة أو «المجاهدون» يصطفّون على الجانبين، يضغطون على مقابض بنادقهم بأصابع متحفّزة، ينتظرون معركة لا جلسة محكمة. الأرضية ترابية غير مستوية، وعلى أطرافها تُوضع حصائر قديمة عليها آثار دم. أمام القاضي يجلس كَتَبة صغار، يكتبون كل كلمة، لا ليثبتوا الحقيقة، بل ليعيدوا صياغة التهمة وفق ما يريده الأمير.

حين يدخلونني، أسمع أصواتًا خافتة تتهامس من المقاعد الخلفية: نساء ملثمات، وأطفال صغار يُجلبون ليتعلموا «كيف يُقام الشرع». أشعر أنني لا أُقدَّم للمحاكمة بقدر ما أُقدَّم كعرضٍ للردع، ويقدم وجودي بهذا القدر من الاستعراضية العقابية درس حيّ لغيري.

القاضي لا ينظر إليّ طويلًا. يطرق بمطرقة صغيرة على الطاولة أمامه ويقول بصوت جهوري: هذه امرأة خرجت عن طاعة الأمير، ورافقت خارجةً على الجماعة. التهمة ثابتة.

لا يوجه أية أسئلة، ولا يُمهل، حكمه يُكتب قبل أن تُتلى الاتهامات.

في تلك اللحظة، أتخيّل محكمة أخرى، حيث الأرواح تقف عارية أمام نور الحقيقة، لا جدران، لا جنود، ولا رايات. هناك وحدها

الملائكة تسأل:

هل كذبت؟ هل ظلمت؟ هل خذلت قلبك؟ لم يكن في ميزان تلك المحكمة سوى ما يخبئه الإنسان في داخله.

يقف القاضي خلف الطاولة البسيطة، عيناه نافذتان فيهما سورة «التوبة» كاملة. يقول، بنبرة مقطوعة الحيلة:

هرب بلا علم الأمير، واختلاط بلا محرم، وسفر بلا إذن، كلها كبائر، وبعد أخذ رأي المالك الشرعي، قررنا نحن المحكمة الشرعية المخولة باسم الله:

ثلاثون جلدة على الملأ، ووجوب التوبة، ومنع الخروج دون محرم أو إذن رسمي.

يربطونني إلى العمود في ساحة المسجد الخلفية، يتجمع الناس بلا دعوة، رجال بلحى كثّة، وأطفال ينتظرون عرضًا ترفيهيًا، ونساء يختبئن وراء النقاب يشهدن على نكبة امرأة لا تشبههن. يدَيّ مشدودتان للأعلى، ظهري مغطى بقطعة قماش خشنة لتجنّب الشك. عباءتي مسحوبة حتى الخصر، لا شيء يستر الجسد سوى الخيال، وكل خيال يُهان حين يُفضح.

.....

يأتي الجلّاد، ضخم الجسد، يمسك السوط كما يُمسك أحدهم مقبض الغضب. يلفّه في الهواء مرة، ليسمع صفيره قبل

أن يلامس الجلد.

وقبل أن يضرب بسم الله، ينطلق من الصفوف صوت طفل ضاحك — ضحكة عالية، لا تنتمي للمكان. يسكت الجميع لحظة، يلتفت بعض الرجال بغلظة نحو الطفل، يرتبك والده وهو يحاول إسكات ابنه بكفٍّ على الفم، ومع هذا تظل الضحكة ترنّ في أذنيّ، طعنة ساخرة في قلب المشهد. ألمح في بعض الوجوه تردّدًا، شرخًا صغيرًا في صلابة الموقف، سرعان ما يُعاد ترميمه بصرخة نافذة للقاضي في أن يبدأ.

ثم يبدأ. الضربة الأولى لهبة نار تُخبّأ في شقّ من ظهري، وتنفجر فجأة. أشهق. أحاول الصراخ، لكن الهواء يخرج من صدري دفعة قوية تحول دون ذلك. تجعلني الثانية أعض لساني، أشعر أن جلدي ينقسم نصفين، نصفه الأعلى يحترق.

في الثالثة... أرى نجومًا، ومضات بيضاء، رغم أن النهار ساطع.

ثم تأتي الرابعة، والخامسة، حتى أفقد العد. كل ما أحسه هو الألم، يتناوب بين لذعٍ حارق وضغط صارم وتكسر عظام تحت وطأة كفٍ جبّارة.

في واحدة من الضربات، أطلق صرخة تفاجئ الجميع حين تخرج من الحنجرة مثل روح تنتزع. أرى بعض الوجوه ترتعش، والجلّاد يتأخر ثانية، ظننت أن شيئًا في صراخي يلمس فيه بقايا بشرية، لكنه

عاد الى الضرب.

آخر ثلاث ضربات... لا أشعر بها إلا كأثر. الجلد يموت، ولم يعد يوصل الألم. لكن قلبي يبقى حيًّا يتلوى، ويقسم أني لن أنكسر. أقنع نفسي بصواب محاولتي كي أتحمل الألم، وأزداد قناعة أني أربح الجولة، وأني لم أمت، ولم يُخدش اسمي. وأعرف وأنا مقيّدة إلى خشبة العقاب أمام الناس: أن الجلد أهون من القبر.

حين يفكّون وثاقي، لا أستطيع الوقوف. ركبتاي لا تعودان تحملان جسدي الذي يتلوى. أحاول الوقوف ثانية وثالثة، إلى أن أتمكن بمشقة، وأسير ببطء، أحمل ظهري كقطعة من النار. لكنني لا أضعف أمامهم، ولا أمام النساء، ولا الأطفال، ولا حتى أمام الجلّاد. أمشي بنصف وعي وأقول لنفسي: أنا الآن أمتلك ظهرًا مجلودًا... يصلح أن يكون رمزًا لكل بنات هذا الجيل ومن بعده. أحمل خسائري على كتفي لكنني أمضي قدمًا.

في تلك الليلة التي أعود فيها إلى مالكي الصومالي، لا يكون للظلام نهاية. أتمدد على الحصير الخشن في فناء الدار، جسدي الهزيل يشهق بالألم عند كل نفس. لقد ترك الجَلد خطوطًا نازفة على الظهر، وكل نسمة ريح تمرّ سكاكين على الجراح المفتوحة.

تجفّ الدموع بعد ساعات. أستمر بالتحديق في السماء، أنظر إلى النجوم البعيدة، أبحث عن رحمة ما، عن عينٍ إلهية ترى ما لا

يُرى في هذا المكان المغلق. فناء البيت يبقى صامتًا إلا من أنيني الخافت بين حين وآخر، وبينما الغفوة تراودني، أتذكر جدتي التي طالما تحكي عن محنٍ قديمة، عن نساء إيزيديات جرى جلدهن أو نفيهن أو طمس أسمائهن، لكنهن يظللن واقفات مثل جذوع شجر لا تنكسر. تلك الحكايات التي كنت أسمعها كقصص بعيدة، تصير فجأة جزءًا من دمي ولحمي، كأن ظهري يتصل بظهورهن جميعًا.

يغلق الصومالي الباب وراءه متكئًا على الله في مهاجمة نقطة عسكرية للجيش السوري، ويتركني هناك، مجرد شيء انتهى من تأديبه. البرد، رغم أنه ليس قارصًا، يبدو متواطئًا مع الألم ليُبقيني يقظة، ساهرة، أتأرجح بين ذكريات ما كانت عليه وما أصبحت، بين الخوف من الغد ومرارة اليوم. ومع أول خيوط الفجر، لم يغمض جفني بعد، يستمر جسدي في النبض بحرارة الجلد، بينما روحي تبدأ بالانفصال، تبتعد قليلًا عنه، جسدًا منكسرًا يبحث لنفسه عن أفقٍ آخر لا تحدده العقوبات ولا القيود. أغيب بعيدًا في غيبوبة عميقة.

.....

لا أتوقع رؤية أمينة مجددًا بعد أن تغيب أسابيع بلا أثر أو خبر. لكن مع بزوغ الفجر، حين يبدأ الضوء يتسلل خجولًا إلى أطراف الفناء، ينفتح باب الدار بهدوء، وتظهر أمينة، تمضي بخطى خفيفة، وعيناها تبحثان في العتمة عن وجه تعرفه.

حين أراهـا، تنهار مقاومتي؛ دموعي التي عصت عليّ الليلة الماضية تنهمر دفعة واحدة، فأدرك أن الأمان قد وصل.

تجثو إلى جواري وتضمني برفق إلى صدرها، حذرة من أن تمس الجراح. رائحة التراب عالقة بثوبها، ويداها ترتجفان رغم قوتهما. تهمس بصوت يطفو بين التعب والحرص أنها كانت هناك، في مهام خاصة لم تقدر أن تخبرني عنها، وأنها عادت الآن لتراني أولًا.

أتجنب السؤال. لا أملك القوة كي أسأل، وربما لا أريد أن أعرف بعد. يكفيني الاستماع إلى صوتها، ذلك الصوت الذي يغمر حياتي ماءً حين يجفّ القلب.

تجلس إلى جانبي، تمسح العرق عن جبيني، ثم تبدأ تروي ما جرى في غيابها. تخبرني أن الهجمات على الرقة قد ازدادت، وأن «قسد» تقترب من كل الجهات، خاصة من الغرب، وأن المدينة الآن محاصرة بشكل شبه كامل، والدولة برمتها متأهبة، والوضع خطير حقًا.

أومئ برأسي، ليس خوفًا وإنما إنهاكًا يثقلني، فتستمر حديثها عن الحرب التي لم تعد بعيدة، وقد أضحت خلف كل باب.

لكنني في تلك اللحظة، ووسط تهديد الموت والوجع والخراب، أحسّ في وجود أمينة شيئًا أندر من الأمان — رفقًا في زمن قاسٍ، وهمسًا إنسانيًا في قلب الجنون.

في اليوم التالي، تهدأ الشمس أكثر مما سبق، أو لعل الألم يخفّ قليلًا عن جسدي، فأنهض عن الحصير عائدة من موت صغير. جراحي لا تبرأ تمامًا، والألم في داخلي باقٍ كما هو، لكن الوقت قد حان لأغلق عليه بابًا وأواصل الحياة، كما أعتدت منذ أن سُلبت حريتي.

أعود إلى مهامي في بيت الصومالي: الطبخ، غسل الملابس، كنس الفناء، والسعي إلى أن لا أنسى... أو التظاهر بذلك. وفي المساء، يتغيّر كل شيء. طرقٌ عنيف على الباب، وصيحات رجالية مشحونة بالفوضى، تطلب فتح الباب الآن وبسرعة.

أتردد لحظة، ثم يُدفع الباب، فيتدفق الرجال الأربعة إلى الداخل، والغبار يسبقهم، عاصفةٍ صغيرة تنفجر في وجهي. يحملون الصومالي على نقالة خشبية، جسده مثقَل بالدماء، ووجهه شاحب، عيناي تتسمرّان فيه بينما قلبي يهبط حجرًا في بئر مظلم. يقول أحدهم بسرعة إنّه جُرح في المعركة، وإن الطبيب ضمّده لكنه يحتاج رعاية خاصة، ويضيف دون أن يلتفت إليّ أن لا أحد في البيت غيري، وأنه واجبي الشرعي. ثم ينصرفون، ويتركوه بين يديّ، يبدو أنهم مستعجلون لإخلاء آخرين، فالمعركة كبيرة كما نوهت عنها أمينة.

أقف أمامه لحظة طويلة. لقد ساهم الرجل في الحكم بجلدي

بلا رحمة، وتركني أنزف وحدي على حصير مغبر، وها هو الآن فاقد الوعي، ضعيفًا، بين الحياة والموت. يمكنني أن أدير ظهري، أن أتركه... لكن أنين صدره المكسور يستوقفني، يذكّرني بصوتي حين أصرخ تحت السوط.

ومن هنا يبدأ التحوّل. بيدين موجوعتين أنزع الضماد الملطخ بالدم، وأغسل جرحه كما أفعل مع جراحي. أبدّل الضماد، وأضع الدواء ببطء، كما لو أني أداوي شيئًا داخلي، لا جسده فقط.

في الليالي التالية، أجلس إلى جواره أسهر، أضع كمادات لتخفيف حرارته، أطعمه حين يستفيق، وأنظر إلى عينيه حين يهذي بأسماء لا أعرفها... وربما أسماء قتلاه. وعندما تصحو كوابيسه، أوقظه برفق، لأعبر له أنه بخير... وأصمت.

لا أعود أراه سوى رجلًا مكسورًا، يحمل على جسده ما يشبه حملي أنا. لا أغفر، لكني أرى هشاشته. وشيئًا فشيئًا، يعود إليّ قدر من إنسانيتي، التي أظنها دُفنت تحت الجَلد والذلّ.

في الليلة الخامسة، بينما أضع كمادة جديدة على جبينه، يبدأ يتقلب تحت الغطاء، يتصبب عرقًا ثم ينهض من فراشه متكئًا، يتمتم بكلمات مبعثرة لا أفهمها. يخطو صوب زاوية البيت ويأمر بصوت متقطع أن يُعطى الحبل ليربط الجمل، أن يُمسكوه كي لا يهرب.

أرفع حاجبيّ وأكتم ضحكة خفيفة تخرج رغم خوفي، وهو يتابع هذيانه مدافعًا عن نفسه بأنه لم يسرق التبن، وأنه فقط يريد أن يربط الجمل. وفجأة، يفتح عينيه نصف فتحة، يحدّق في الفراغ، ويقول محذرًا: لا تدخلوا الزريبة قبل أن تُصَلوّا الفجر.

أنفجر ضاحكة، ضحكة قصيرة، مكبوتة، لكنها صادقة، تنفض غبارًا متراكمًا في صدري. أمسح عينيّ بكمّ جلبابي، ثم أهمس له بسخرية دافئة: أجل، إن المشكلة هي الجمل! يبدو أن معركتك لم تكن مع الأعداء... بل مع حيوانات حظيرة جدتك!

يتحرك باضطراب، يسأل بعصبية ما الذي أقوله.

أجيبه بخفة: كنت أوقظك من كابوس، مثل كل مرة.

تستمر الليلة بضحكتي العالقة في جو الفناء، تمتزج بأنين رجل محموم يحارب فحولًا وهمية في كوابيسه. وفي اليوم التالي، حين يستفيق، يرمقني بدهشة ويستفسر إن كان قد قال شيئًا وهو نائم. أجيبه مبتسمة: لا شيء مهم... فقط كنت تفاوض عن تبن مسروق وجمل تائه.

يحمرّ وجهه دون أن يعرف السبب، ويشيح ببصره نحو الجدار. أما أنا فأعود إلى عملي بصمت، لكن الضحكة المعلّقة في داخلي لا تفارقني طوال النهار. في المساء، حين يجلس مستندًا إلى وسادته، يحاول أن يخفي ارتباكه خلف نبرة باردة وهو يقول إنني أسخر منه،

ثم يضيف بوقار متكلّف أنهم لم يقيموا هذه الدولة عبثًا، بل ليقيموا الشرع كما أمر الله.

أردّ مباشرة أنكم تستبيحون القتل سبيلًا لإقامة الدولة.

يتشبث بجملته المكرورة: القتل حدّ من حدود الدين.

أنظر إليه طويلًا، أسمح للصمت أن يضغط على صدره، ثم أجيبه بهدوء حادّ أن أيّ دين هذا الذي لا يعيش إلا بالدم؟ الدين لا يحتاج إلى سياط ولا مقاصل. الدين يُزرع في القلب رحمة، لا في الساحات رعبًا. أنتم لم تبنوا دولة، بل استدعيتم الماضي بكل ما فيه من ظلام، وأجلستموه فوق صدور الناس.

يتململ، يحاول الدفاع بالقول إنهم يعيدون ما هُدم، ويرجعون الناس إلى عهد النقاء.

أضع يدي على ظهري الجريح، أتنفس ببطء، وأردّ بسخرية دامية أن النقاء لا يُصنع على جلود النساء، ولا على أشلاء من تسمونهم كفّارًا. النقاء يُصنع بالعدل، بالصدق، وبحياة تُترك فيها الروح لتختار ربها بلا سوط ولا تهديد.

يسود الصمت لحظة. يستمر في التنفس ببطء، وعيناه معلقتان بالأرض. أشعر أنه، للمرة الأولى منذ عرفته، لا يجد ردًّا جاهزًا، لا آية يلوّح بها ولا حكمًا يستند إليه. يبدو أن الكلمات التي طالما تتدفق منه تنحبس في حلقه فجأة، ويصير صمته أثقل من خطبه السابقة.

يقلب صفحات الكتاب في حجره، يبحث بيأس عن سطر منقذ، عن أي عبارة تحفظ له توازنه. لكن الكتب بين يديه تغدو كأحجار صمّاء، لا تنطق ولا تبرّر. تتحرك شفتاه، يهمس لنفسه: آية مبتورة، أو دعاء مشوش، لا يُفهم منه سوى ارتباكه.

لا يعود يجرؤ على رفع عينيه لملاقاة عينيّ، خشية أن أرى ما يحاول إخفاءه: ذاك القلق الذي يحفر في وجهه، والارتباك الذي يتسلل إلى صوته كلما يحاول صياغة رد أو إجابة. ومنذ ذلك الحين لا يعود يناقش، يكتفي بالانكفاء على كتبه، كمن يلوذ بجدار واهٍ من الورق والحبر. يتظاهر بالانشغال بعبارة، لكنه في الحقيقة غارق في صراع داخلي لا يجرؤ على الإفصاح عنه.

أحيانًا يطيل التحديق في جملة كأنه يقرأها للمرة العاشرة دون أن يستوعبها، وأحيانًا يطبق الكتاب فجأة ويجلس صامتًا، يحدق في الفراغ بعينين غائرتين، كمن يطارد شبحًا لا يراه سواه.

يكون ضعفه أمامي أوضح من جرحه النازف. ومع مرور الوقت أدرك أن كل تلك الكتب التي يحضرها من ديوان التعليم الشرعي، من سيد قطب إلى «الدرر السنية» و «السيف المسلول»، ليست سوى عكّاز يتكئ عليه كي لا يسقط في هاوية فراغه. لكنني أرى، في اضطراب أنفاسه، أن الهاوية تقترب منه أكثر مما يقترب هو من أي يقين.

(١٣)

يتشافي الصومالي، ولم يعد ذاك الرجل الصلب، بات قادرًا على الوقوف والمشي وأداء أعمال خفيفة في الخطوط الخلفية لجبهة القتال. تصير بندقيته للزينة، والعنف الذي كان يملأ حضوره يخِفّ، أو يتراجع قليلًا، ربما لأن الإصابة تسرق منه شيئًا لا يعرف كيف يسترده. أما أنا، التي أعود إلى مهامي بصمت، فأبدأ ألاحظ شيئًا يتغير في جسدي: روائح المطبخ التي أتحملها لسنوات تزعجني فجأة. معدتي تنقلب من أدنى لمسة، ورأسي يدور في منتصف النهار. حين تزورني أمينة فجأة، تجلس كعادتها على حافة الفناء، فأميل نحوها وأهمس بصوت خافت: لا أستطيع تحمل رائحة الطبخ... كل شيء يجعلني أستفرغ، حتى الماء.

ترفع حاجبيها بدهشة، ثم تغمز بعفوية، وتقول إنّها علامات الحمل.

يسود السكون، أتجمد في مكاني، وأنظر إلى أمينة من منظار النطق باللعنة: حمل؟ أقولها في قلبي لا بصوت مسموع.

تضحك، تظن أن المفاجأة عابرة، ثم تبدأ تتحدث عن تجارب نساء أخريات، وتوصي بالراحة، وتقول إن الله يعوّض المؤمنين. لكني لا أعود أسمع بعدها شيئًا. الكلمات تتلاشى في أذني كأنها تأتي من

تحت الماء. حمل؟ من مَن؟ متى؟ ولماذا جسدي، الذي لم يكن لي، يُصرّ أن يخونني مرتين؟

لا أخبر أمينة بشيء. أنتظر حتى تنصرف، ثم أدخل غرفتي وأغلق الباب. أجلس على الأرض أحدّق في جدار الطين، كأني أبحث فيه عن طريق للخلاص.

كيف أسقطه؟ مشروع نجاة، وليس سؤالًا عابرًا. لا أتحمل أن يُخلق داخلي امتداد لجحيمي، شيئًا يُنسب لرجل لا أحمل له سوى المرارة، ولا يظهر لطفه إلا حين يعجز عن الأذى. وبين الخوف والقرار، أقلب الأفكار: صمت، ثم رغبة، ثم قلق، ثم ما يشبه التصميم.

لا أفشي سري، ولا أُظهر ارتباكًا. أتحرك في البيت كما لو أن شيئًا لا يتغيّر: أطهو، أعمل، أجيب عن أسئلته بكلمات مقتضبة، وأخفي ارتجاف يدي خلف الملاعق والأطباق. أما هو، فلا يلحظ شيئًا، منشغل بلعق جراحه الماضية، لا يرى مني سوى يد تقدم الطعام، وصوت يوقظه من نومه.

في اليوم التالي، أبدأ مشروعي. أقفز عشرات المرات في الفناء، لإجبار الجنين على السقوط، على الرحيل قبل أن يتمادى في كونه شيئًا. وفي اليوم التالي، أحمل قنينة الغاز الثقيلة وأسحبها إلى السطح، ثم أنزل بها. مرة، اثنتان، خمس، عشر. أنهك تمامًا، لكن التعب لا يكون كافيًا بعد.

في كل خطوة، كنتُ أتخيّل ولدًا لي، يكبر، يحمل بندقية. وجهه يشبه واحدًا منهم، مشوّهًا بالقسوة. يركض نحو شنكال، حيث يعيش أخواله، ويفتح النار عليهم كما يعلّمه معلمه. أو ربما بنت، تُدرَّب منذ الصغر على طاعة الذكور، وجهاد النكاح، فيكون جسدها ساحة أخرى يُنتهَك باسم الله.

الغثيان يتضاعف من هذه الصور التي تتكرر في عقلي قسرًا. أبصق على الأرض أحيانًا، لفظا للفكرة نفسها.

في اليوم الخامس، وقد أفقد السيطرة على جسدي، أقف أمام العمود الحجري المنتصب في منتصف الفناء. حافته المدببة تنادي عقلي. أقترب، ثم أبدأ أضرب بطني به، مرارًا، بإصرار مذعور، في صراع مع وحش ينهشني من الداخل. ضربة، ثم أخرى، ثم أسقط.

لا أدري كم مرّ من الوقت. وحين أفتح عيني، أكون وحدي، والغبار يعلو السطح، والهواء ساكن. بين فخذي كتلة دم متجلطة، تتنفس بحرارة وجيزة، ثم تبرد.

أنهض بصمت. أغسل الأرضية أولًا، ثم جسدي. أنزف وأنا أفرك الحصى، وأتمتم بلا صوت. لكن النزيف لا يتوقف، يسيل بطيئًا وثقيلاً، يترك أثره على ردائي، يرهقني كلما أحاول الوقوف. ترتجف أطرافي، وبرودة غريبة تسري في بدني، بينما الألم الحاد يضغط أسفل بطني، شيئًا لا يزال يتمسك بي من الداخل، لا يتوقف ينقر على قلبي

بإصرار، يذكرني أن ما سقط لم يكن مجرد دم.

في الليل، لا أستطيع النوم. أستيقظ كل ساعة لأتفقد الملاءة، أغسل وجهي، أتحسس موضع الألم. أشعر بفراغ داخلي، فراغ لا يملؤه شيء. حتى أنفاسي تكون متقطعة، تتعثر بين شهقة وأخرى. وفي المساء التالي تصل أمينة مجددًا، تجلس قرب الباب، وبصوت حنون تسأل إن كان وجهي شاحبًا وما بي. أشيح بنظري بعيدًا وأجيب مترددة إن الدم نزل فجأة، بلا مقدمات، وأني أعتقد أنني أُجهِضت. تشهق بخفة، وتعتذر هامسة: يا الله... آسفة، يعني الحمل لم يكتمل؟

أومئ دون أن أشرح شيئًا؛ لا عن القفز، ولا عن العمود، ولا عن الرعب من طفل يولد بملامح قاتله. وفي قلبي حزن ليس على ما فُقِد، وإنما على ما كان سيصبح.

.....

يعود الصومالي إلى البيت مساء، يتصرّف على غير عادته، يمشي بخفة غريبة، يدفع جسده بإرادة مضطربة. يلفّ وسطه بقطعة قماش سميكة، وفوقها سترة داكنة، رغم اعتدال الطقس. ألاحظ ذلك فورًا. أتقدّم منه لأسأل: ما بالك ترتدي كل هذه الملابس، وكأنك خارج في زمهرير؟ الجو ليس هكذا.

ينظر إليَّ بحدة، ويمد يده كأنه يحاول دون لمسي: اجلسي... هناك، بعيدًا عني.

أجلس، يغمرني الفضول الملفوف بقلق عميق. يصمت لحظات، ثم ينطق بصوت خافت، ناعم على غير عادته، يخبرني أن بعد العشاء، في مدينة قريبة، اجتمع من يسميهم كفارًا من كلاب الأمريكان، وأنه سيدخل بينهم ويفجّر نفسه بالعبوة الناسفة التي تحيط بخصره.

أشهق، أولًا بخفة ثم أعلى مما أريد، لا أصدق أذني. أسأل بتعجب متوتر: تفجّر... نفسك؟ يبتسم ابتسامة غريبة، مزيجًا من فخر وطمأنينة، ويقول إنه اليوم يحقق أمنيته بلقاء الرسول، وإنهما سيتسحران سويًا، ويصومان الغد معًا. يطلب مني أن أتخيل سعادته برؤية وجهه وسماع صوته. يضيف أن هذه أمنيته التي زرعها فيه شيخه بالجامع منذ بدأ يدخله للصلاة.

أصمت لحظة، ثم أنطق بدهشة واضحة، وصوتي يتثاقل بالرفض: وأنا هنا؟ ووالدتك هناك؟ والمستقبل ودورك في الحياة كإنسان؟ يرفع نظره، لكنه لا يجيب. أتابع، وصوتي يرتفع وينكسر: تفجّر نفسك كي تلتقي الرسول؟ دعني أسألك: هل يقبل الرسول أن تترك والدتك في حسرة؟ أن تخلف جارية من بعدك دون أن تعتقها، كما لو كنت تترك نعجة في حظيرة؟

يتراجع قليلًا في جلسته، يحاول أن يبدو صلبًا، لكن حرارة كلماتي تخترقه. يقول بصوت متماسك: پيريڤان، أنتِ لستِ مسلمة، ولا تفهمين الجنة. إنها تحتاج تذكرة، وأنا وجدتها اليوم.

أنفعل بحدة: تذكرة دم؟! تفجّر نفسك وسط ناس قد يكون نصفهم أبرياء؟ غير مسلحين؟ قد يكون من بينهم أطفال؟ كيف يمكنك كإنسان أن تقبل الدم طريقًا للجنة؟ كيف؟

يهز رأسه كأنه يستعيد درسًا محفوظًا، ويردد أن الشيخ قال: إن مات الأبرياء، فهم شهداء، وإن مات غيرهم، فهم توابع الكفار، والتابع كالأصل، يدخلون النار معهم. نحن نطهّر الأرض منهم، والله يميز الخبيث من الطيب.

أضحك بمرارة، وأرمي كلماتي سكاكين على غير هدى: تطهّر الأرض بدماء أطفال؟ بالله عليك، أي أرض تصفو إذا غُمرت بالدم؟ وهل الله عاجز حتى يحتاجكم لتطهيره؟

يرتبك، يرمش سريعًا، يبلع ريقه كأنه يفقد خيط الفكرة، ثم يتمتم بلهجة واهنة عن الشهداء الأحياء عند ربهم، والملائكة التي تستقبلهم، والأنهار، والقصور، وحور العين.

أقاطعه بحدّة: قصور من دماء الجيران؟ أنهار من دموع الأمهات؟ حور عين بلا حساب؟ هذه ليست جنة، هذه مسرحية ساذجة. تريد أن تشتري تذكرتك إليها بجثث أبرياء، ثم تقول لي إنك عاقل؟

لا يرد، يظل يعبث بأصابعه، يضغط كفه فوق بطنه الملفوف بالعبوة، طفل يردّد ما حُشي في رأسه دون أن يدرك ثقل كلماته. لحظتها أراه محاطًا بقشرة واهية يسميها إيمانًا، بينما يخفي تحتها

خواءه وارتباكه.

وجهي شاحب، وصوتي يحمل حشرجة الأمومة التي وأدتها بيديّ قبل أيام. أما هو فيبقى ساكنًا، ثم يخرج من جيبه ورقة مطوية ويقدّمها لي من بعيد. يقول إنها وصيته، وفيها كل شيء، حتى اسمي. أفتحها وأقرأ بصمت:

«وصية شرعية... أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله... وأوصي أخي حسان السوداني باستلام خاصتي السبية پيريڤان، فقد خدمتني في مرضي، وأطلب إكرامها كما كنت أفعل. غفر الله لي ولكم.»

أطأطئ رأسي، وشيء في داخلي ينطفئ. أقول بمرارة: تتوارثوننا سلعًا حتى بعد أن تموتوا؟

لا يرد. ينهض فجأة، عينيه مشتعلة لكنها مضطربة، ويطلب مني الدعوة له في أن يموت شهيدًا.

أهمس بنبرة لا تخلو من سخرية حزينة: كيف تستجاب دعوتي وأنا لست مسلمة؟ ومع ذلك، سأرفع يديّ إلى خالق هذا الكون، رب جميع الأديان، وأقول: اللهم إن كانت الشهادة تُنال بسفك الدماء، فاجعل الدنيا مقبرة لمن يكون السبب. أما إن كانت تُنال بالحياة، فاحمِ أولئك المجانين الذين يهرعون إلى الموت لأنهم لم يملكوا شجاعة البقاء أحياء.

عندها يخرج، وأبقى وحدي أقبض على الورقة بيد، وباليد الأخرى أقاوم ارتجافًا خفيًا. عيناي تترددان بين السطور، تقرآن ولا تقرآن. الكلمات تنزلق في عقلي كالماء، لا تستقر، تكابر في الفهم أو ترفضه.

.....

في ركن الغرفة، تُعلن ساعة الجدار وحدتها بدقّات باردة. الريح تهمس خلف النوافذ، تراقبني هي أيضًا، متواطئة مع الحزن. في صدري شيء يتكسّر بهدوء، لا صوت له، لكنه يدوّي في داخلي. أعرفه جيدًا، رفيق قديم يتسلّل كلما أحاول أن أكون بخير. لكن اليوم... تقول هذه الورقة الوصية شيئًا مختلفًا، شيئًا نهائيًّا. أشدّ على الحروف بأصابعي، مدفوعة برغبة لا واعية بتغيّيرها، وحين أيقن أن المصير مكتوب ولا يتغيّر، أتركها تسقط من يدي.

لا يختلف الأمر كثيرًا حين أُسلَم إلى حضن السوداني. جسدي بضاعة، والرجل هو التاجر الجديد. ما يختلف أن الحرب تشتدّ، وأن تمنياتي باشتدادها تزداد. فالهجوم على «الدولة الإسلامية» الذي كانت أمينة تنوّه عنه يصير حقيقة قريبة. السماء تمطر صواريخ. والتكبيرات في الشوارع لا تعني إلا خوفًا يتصاعد مع كل دويّ.

لا أمكث في بيت السوداني أكثر من أيام. غارة، يقال إنها أمريكية، تمزّق المكان، وتخلّفني حيّة بين الركام. ومن هناك تبدأ سلسلة لا

تنتهي: أُنقل إلى آخر، ثم آخر، وكل واحد منهم لا يعيش طويلًا بما يكفي لأن أحفظ اسمه أو أميّز ملامحه. وجوه تتكرر كالكابوس، تتعاقب على افتراس جسدي، ثم تتعاقب على الموت. أكثر من عشرة في شهر واحد.

كنت أعدّهم في البداية، ثم أتوقف، حيث لم يعد للعد معنى. الموت يصير أسرع من ذاكرتي. آخر من يعلق في ذهني موريتاني، حين تُحاصر الرقة ويبدأ الهجوم الفعلي. يجيئني مرتجفًا، عيناه تهربان من بعضهما، ويقول إنه يجب أن نهرب معًا، أن نحاول.

أرفض بدافع لهفتي أن أضع بيدي نهاية لمصير يقال إنه مكتوب. لا أعود أؤمن بشيء: لا بالهرب، ولا بالنجاة، ولا حتى بالعقاب. أتركه وشأنه، ولا أسمع عنه شيئًا. بعد ذلك.

.....

يشتدّ القتال في أطراف المدينة، وأصوات الانفجارات ما عادت تفصل بين نهار وليل. العقد ينفرط، والسادة الذين يوزّعون الأوامر كأنهم آلهة، يتساقطون أو يفرّون كالفئران. سيطرتهم تتداعى، والأمراء يختفون واحدًا تلو الآخر. ديوان الأمن يغيب عن الساحة، لا استدعاءات، لا تهديدات، لا رقابة. وديوان الحسبة لا يعود يعرض السبايا للبيع... ربما لأن لا أحد بات يشتري. الكل يحرس نفسه، يبحث عن مخرج، عن حفرة ينجو بها من الموت أو الحساب.

في هذه الفوضى، يصل خبر مقتل العراقي زوج أمينة. فأتوّجه إليها، وأنظر في عينيها، فتكونان فارغتين، فالدمع ينسحب من روحها قبل جسدها. أقف معها طوال اليوم، ليس عـزاءً، فالحرب تصير هي العزاء، وقفة رفقة في خواء ثقيل. كأننا ننتظر شيئًا، لا نعرف ما هو. لا جنازة، لا أحد يدفنه، لا أحد يصلي عليه. يسقط مثل غيره، وتبتلعه الأرض أو السماء، لا فرق في مثل هكذا أيام.

في آخر النهار، حين تخفّ أصوات القصف قليلًا، أعود إلى بيتي. نصفه مدمّر، لكنه ما زال قائمًا بما يكفي ليحتوي صمتي. لا أتحمّل، فأرجع إلى أمينة وأجلس قبالتها. أنظر إليها، لا إليها بالضبط، وإنما لشيء خلفها، بعيد، غارق في الظل. ثم فجأة، أمسك بيدها، أشدّ عليها بقوة غريبة، وعيناي لا تزالان في الفراغ، وأقول بهمسٍ أقرب إلى الحكم: تظنين أن أحدًا سينجو؟ لا أنا، ولا أنت. كلنا سنُؤكل. تعالي، نبقَ هنا، لا نهرب، لا ننتظر من يأخذنا. نُسلّم نفسينا للمصير سويّة. على الأقل، لن أموت وحدي.

لا تجيب. لا تجد ما يُقال. يدها تهوى، لكن قبضتها تستمر قوية، لا تُفلِتني. وفي تلك اللحظة، أشعر أنها تريد أن تصدّقني، وتصدّق أننا إن متنا معًا، لن يكون الموت مخيفًا. وأنها في النهاية تريد رفيقة أكثر من رغبتها بالنجاة. فأجلس عندها، ولا أعود إلى البيت.

يهتز بيت أمينة، يتآكل من كل جهة. كل زاوية فيه تنزف ترابًا.

شقوق الجدران تتسع، أفواه تطلب الرحمة، والسقف يئن مع كل قذيفة تمرّ من بعيد أو قريب. نعرف أن الأمر مسألة وقت. وفي هذا القلق الحاد، في لحظة تبدو معلّقة بين الحياة والموت، تنفتح أمينة فجأة، خوفها صار مفتاحًا لتجاوز الغموض في داخلها. تجلس قرب الباب المخلوع، وتبدأ تحكي. تقرر أن تسمّي الخطأ باسمه. تقول إنها من عائلة دنماركية كاثوليكية ملتزمة الى حد ما تعيش في ضواحي كوبنهاغن. بيت مرتب، أب موظف، أم حنونة، إخوة لا يشبهون شيئًا من هذا الجحيم. لكنها تختلف معهم، أو ربما تختار أن تختلف. ذلك في بدايات المراهقة، حين تشعر أن لا أحد يفهمها. صوتها يُكتم، آراؤها يُستهزأ بها، حتى تبدأ تقضي كل وقتها أمام الإنترنت. من منتدى لآخر، من حساب إلى آخر. وفي إحدى الزوايا يظهر شاب سعودي يجيد الانجليزية. يبدو مؤدبًا، مهذّبًا، يدعوها للتعرف على الاسلام، لقراءة القرآن، للتهيؤ إلى النعيم. ثم يصير أكثر من ذلك. يخبرها عن طريق «الولاء والبراء»، عن جنة المسلمين التي تنتظر من باع الدنيا. صوته واثق، دافئ، مختلف عن أصوات والدها وإخوتها ومعلميها. يقول لها: «الله سيحبكِ، وستكونين من النساء الطاهرات، وأنا سآخذ بيدك إلى السماء، لا إلى الجامعة.»

تضحك أمينة يومها، ضحكة فيها شرخ واضح، وتستمر قائلة إنها لم تكن تعرف أن السماء التي وُعدت بها ستكون مغطاة بالدخان.

وأن طريق الجنة يمرّ عبر بيوت مفخخة، ونساء مفترسات، ورجال يَغْتَصبون باسم الله.

لا أعلّق بشيء، ولا تواصل أمينة الكلام، حتى يهدأ القصف لحظة، فأراها كما هي، إنسانة احترقت على مهملات الإنترنت، طفلة ضلّت الطريق فأكلها الذئب.

تبقى جالسة قرب الحائط، تستند على شيء لا تريد له أن يسقط معها. عيناها لا تعودان حادّتين كما عرفتهما في الأيام الأولى؛ تلك الأيام التي كانت تمشي فيها كأنها تحمل رسالة من السماء، وتنظر إلى الآخرين كأنها تعرف شيئًا لا يعرفونه. تقول فجأة، بصوت واهن لكنه ثابت: كنت أظن أنني ذاهبة إلى فردوس على الأرض، إلى مدينة تختلف، ودولة تختلف، وعدني بها...

لا أحتاج أن أسأل «من؟»، فكل شيء فيها يعود إليه. ذلك السعودي الذي قابلته في إسطنبول، كان يتحدث عن الإسلام كأنه أحد أئمته العظام، ويشرح الجهاد كأن الله أوكله به شخصيًا.

تتوقف قليلًا، لتسترجع الذكريات المدفونة في أبعد زوايا ذاكرتها. تذكره شخصًا مختلفًا، ذكيًا، مطّلعًا، لا يخلو حديثه من نبرة ساحرة، يقول عن النساء الصالحات سيحيين حياة كنساء الرسول، وإن السماء ستُفتح فوق رؤوسهن إن هنّ صدقنَ الوعد. ويرى في عينيّها شيئًا لم يره أحد، ويؤكد أن الجنة تنتظر من لا يخاف، من أن يعبر،

ويوم صارحته أنها تريد العيش عدالة الإسلام، قال لها: ستكونين شاهدة على بداية التاريخ من جديد.

تبتسم بخفة، ثم تنطفئ ابتسامتها فجأة، تختنق قبل أن تكتمل، وتهمس أنني كنت شاهدة فعلًا، لكن على بداية النهاية.

تشير إلى أنها جاءت متأملة الزواج منه واعتناق الإسلام على يديه ومعه. لكنه سلّمها في إسطنبول لمن نقلها إلى سوريا، واعدًا بلقاء قريب في الصفوف الأولى للمؤمنين، وحال وصولها بدأت العمل في الإعلام: تصوّر، وتبثّ، وتكتب عن النساء المجاهدات. لكنه لا يحضر. يختفي في عالمه الافتراضي، بينما تنشغل في «الجهاد» حتى تتزوّج من مجاهد تونسي يموت. ثم آخر... ثم آخر. أربعة رجال في عامين، كل واحد منهم يعد بشيء، وكل واحد يموت قبل أن يفي.

لا يبقى في الأمر حب، ولا دين. يصير الزواج مثل تبديل الثياب. ومن بعده موت.

تسكت طويلًا، ثم ترفع نظرها إليّ بعينين مطفأتين وتقول إنها الآن لا تعرف من تكون، ولا ما الذي عليها أن تفعل، ولا أين تذهب إن كُتب لها النجاة. كل شيء فيها متجمّد، متحجّر، حتى الدموع لا تسقط. تهمس أنها تسأل نفسها: ماذا بعد؟ لكنها لا تجد جوابًا.

أما أنا، فأشعر بشيء ينقبض داخلي. لم تكن أمينة فقط تائهة، كانت ميتة وهي تتكلم. تنتظر مني - أنا السبية نصف الميتة - أن

أعيد لها الخريطة، أو أفتح لها بابًا نحو حياة جديدة. لكنها لا تدري أني أنا أيضًا لا أملك شيئًا. مثلها، أجلس وسط أنقاض وعدٍ لم أطلبه، ومثلها أسأل: ماذا بعد؟... ولا أحد يجيب.

***

(١٤)

الناس في هذه البقعة من كرتنا الأرضية يفقدون إدراكهم لتعاقب الوقت، ويغدو الزمن عندهم بلا معنى. لا يعرفون في أي يوم هم، ولا في أي شهر. مدينتهم الرقة، أو «عاصمة الخلافة» كما يحلو لبعضهم، تنطوي على ذاتها؛ كل يوم تصغر أكثر فأكثر في انهيار متسارع يقودها إلى نواة صغيرة من التراب والخوف.

الطرق فارغة، الهواء مغبّر، والبيوت صامتة إلا من ارتجاف جدرانها عند كل قصف بعيد. الخروج من البيت يصير نادراً، لا يتم إلا للضرورة القصوى، حتى الكلام يذبل؛ فالأحاديث التي كانت تُحيا بذكريات قديمة تُقال الآن بفتور، لا طعم لها ولا عزاء. الوجوه نفسها تتلون، والأصوات تتغير، والموت يتجوّل في الأزقة يبحث عن بيت آخر يدخل إليه بلا كلل.

أما أنا، فالألم الذي يبدأ في بطني صغيرًا قبل أيام، وظننته عابرًا، راح يتصاعد يومًا بعد يوم، كأن أحشائي تتقطع أوصالها مع تقطع أوصال المدينة نفسها. يضربني في اليوم أكثر من مرة، يطعنني من الداخل، ثم يستقر كجمر يتّقد أسفل البطن.

تتوقف پيريڤان عن الكلام فجأة، تنحني قليلاً وتضغط بكفها على أسفل بطنها، عيناها تضيقان كأنها تبحث عن نَفَس مفقود. الصمت

يطول لحظة، والهواء يثقل من حولها، ثم ترفع يدها مستسلمة للوجع، تتمتم بصوت واهن: هنا... هنا يبدأ كل شيء».

تهز رأسها مرة، ترفض نفسيًا ما يتذكّره الجسد قبل العقل، ثم تستمر، لم أعد أفرّق: هل هو جوع طويل؟ خوف متراكم؟ أم داء جاء مع القهر؟

أضع يدي على بطني في الليل، أضغط بقوة، أحاول أن أسكت شيئًا يغلي بداخلي. لكن الألم يتضاعف مع أصوات الانفجارات، مع وقع الخطوات الغريبة في الأزقة، مع كل صرخة مكتومة في هذا الليل الطويل. تصير بطني مرآة للمدينة: إذا ضاقت، أضيق أكثر؛ وإذا اختنقت، أشتعل ألمًا، حتى تنفّسي صار زفيره يحرّك الوجع، يوقظه من سباته القصير. أتمدد على الأرض أحيانًا، أحاول أن أستعيد نفسي، لكن الأرض الباردة لا تطفئ شيئًا، بقدر ما تزيد الجسد قسوةً وهشاشة.

وفجأة، تقول أمينة بصوت خافت، وهي تحدّق بعيدًا بعينين متوجستين، إنها سمعت أن مستشفى النساء في حي هشام لا يزال يعمل، وأن فيه طبيبة لم تهرب بعد. بدا صوتها محاولة لتخفيف القلق الذي يثقلني، أو صرخة غير مباشرة تشي بخوفها على حياتي أكثر من حياتها.

أما أنا فلا أعلّق بدايةً على قولها، أترك كلماتها معلقة في الهواء.

لكن حين ألفّ جسدي ببعض الأغطية، أرفع عيني نحوها وأقول بهدوء مثقل: سأذهب إلى ذلك المستشفى غدًا... لا تسأليني لماذا، ولا كيف.

لا تتركني أذهب وحدي، وفي الصباح نتسلّل بين الأزقة، متشحين بالسواد في دروب تبدو مشلولة: البيوت مفتوحة الأبواب، النوافذ مكسّرة، والطرقات خالية إلا من الغبار والركام. نمرّ بجثة متحللة، ولا نفزع، فقد صار الموت ظلٍّ دائم على الحائط.

نصل إلى المستشفى. لم يبقَ منه سوى طابق واحد يعمل: نساء يصرخن، أطفال يجهشون بالبكاء، رائحة الشاش الخانقة تختلط برائحة البارود. لا نكمل ساعة هناك حتى نسمع صافرة لا تحتاج إلى تفسير. نعرف فورًا أن الصاروخ لا ينزل مباشرة على المبنى، وإنما على الرواق الخلفي، وكان كافيًا ليسقط السقف فوقنا.

في اللحظة التي يسقط فيها الغبار ويمتلئ فمي بالتراب، أشعر بيد تمسك بي بقوة. إنها يد أمينة، وحين تفتح عينيها، تكون تحت الحطام، وأنا فوقها، تئنّ وعيناها مفتوحتان. نبقى هناك لا نعرف كم من الوقت: ساعة؟ ثلاث؟ يوم كامل؟

في المساء، يجيء رجال من الحي يحملون نقالات خشبية. يخرجوننا من تحت الركام. أمينة لا تقدر على الوقوف؛ ساقها ملتوية، وجهها مغطى بالرماد. يضعوننا في زاوية مع النساء الجريحات،

فأجلس قربها. عندها تقول: هذه أول مرة أسقط هكذا... بلا سلاح، بلا يقين.

لا أعلّق. أكون مرهقة، بل أكثر من ذلك، خائفة من نبرة جديدة في صوتها... شيء فيها يتغيّر.

في اليوم التالي، أحمل إليها بعض الماء، فأجدها تنظّف جرح طفلة صغيرة. أسألها لِمَ لا نغادر، فالحي سيُقصف مجددًا. تنظر إليّ طويلًا، بعينين لا تهربان من السؤال، ثم تقول إنها تشعر أن الله يراقبنا من هنا، لا من فوق ولا من كتب التفاسير، من هذا الركن، من وجه هذه الطفلة التي تستحق أن نبقى إلى جوارها.

أصمت وفي صدري بحيرة غريبة تتسع، وسؤال يطرح: كيف يمكن لها أن تجد الله في نظرة طفلة جريحة، بينما أنا لم أعد أراه إلا ظلًّا غامضًا فوق الجدران؟ تتركني كلماتها بين الدهشة والذنب، كأنها تكشف عن ضعف إيماني أكثر مما تكشف عن قوة إيمانها. وبسبب إصرارها نبقى في الملجأ. بالكاد تقدر على الجلوس، لكنها تصر أن تساعد. أما أنا فأتمدد على الأرض، وشيء ما في داخلي ينقبض، إذ يعاودني الألم بشدة ويصير يطرق على جدران أحشائي من الداخل. عندها أسأل عن الطبيبة، فيقولون إنها وحيدة، ليبية، قليلة الكلام. أمسك يدها وأهمس بصوت مرتجف أن بطني تؤلمني، لا أتحمل.

تأخذني إلى غرفة جانبية نجت من الدمار، صغيرة، رطبة، مغبرة. وبدون جهاز فحص مدت يداها الباردتان في الضوء المنساب من مصباح معلق، لتفحصني بصمت. ترفع عينيها بثبات وتهمس كأنها تخشى أن يسمع أحد: أنتِ حامل في الشهر الرابع.

أبقى صامتة، لا أفهم، ولا أريد أن أفهم. لكنها لا تنتظر ردي، تكمل ببرود صارم كأنها تقرأني: عنق الرحم لديك ضعيف، مهدد بالانفتاح المبكر بسبب علاقات جنسية خاطئة وإجهاض سابق. وأي محاولة إجهاض هذه المرة قد تفقدين حياتك... أو تتركك بعاهة دائمة.

أغادرها دون أن أنطق كلمة، وعندما أخرج إلى القاعة، أجد أمينة تغسل قدم طفل صغير بالماء. يدَيّ ما تزالان ترتعشان رغم صلابتي الظاهرة. أجلس قربها بصمت. لا أجرؤ أن أقول شيئًا. أشعر أني أحمل داخلي حياة لم أطلبها، وحكمًا لم أصوّت عليه. شيئًا يشبه الإدانة... لا الطفل. وفي رأسي جملة واحدة تدور، ثقيلة، خانقة: أنا لستُ أمًّا، ولا أريد أن أكون. لكنني أيضًا لا أريد أن أموت... في هذه الأرض البعيدة عن وطن أود العودة اليه، وبقايا قوم في الشتات.

.....

ذلك المساء، حين يغطي الجميع نوم متقطع، أبقى أسمع دقات قلبي وشيئًا يشبه صوتًا خفيًا ينبض في بطني. أتحسّسه بحثًا عن دليل، عن قرار، عن مخرج. أبقي الأمر سرًّا لأني لا أعرف ماذا أفعل.

أتهمس في داخلي: كيف أقول إن في داخلي مخلوقًا يصرخ: أنقذيني... وأنا لا أريد أن أنقذه، ولا أن أُقتل بسببه؟

في الزاوية الأخرى، تكون أمينة تتهيأ للنوم. عيناها تبقيان مفتوحتين تحدّقان في السقف المظلم. ربما تفكر بالله.

أما أنا فأحاول أن أصدّق أني ما زلت حيّة، وأفكر بما سأفعل بالجنين الذي دبت فيه الروح.

تهمس أمينة بصوت مبحوح، منادِيَةً اسمي: پيريڤان... سامعتني؟

أومئ برأسي، لكن لا أرد. الكلمات تقف على طرف لساني، لكنها لا تكفي.

تتابع بصوت مكسور أنها إن لم تخرج من هنا، عليّ أن أخبر أمها بأنها كانت بخير، وتذكرني بمكان هاتفها.

أنظر إليها بعينين دامعتين، ثم أميل قليلًا، أقبّل جبينها وأقول: ما راح يصير شي... ثم أضيف بجرأة هشة: أنا توًّا بدأت أتصالح مع مصيري، وأرى بصيص أمل. يمكن أنا وأنتِ، سوف نعيش غصبًا عن هذه الحرب، لكن صوت الخارج يكون له رأي آخر:

دويّ قريب يجعل الجدران ترتعش، ويسقط شيء آخر من السقف. تصرخ طفلة في الزاوية، فأسرع لاحتضانها، ناسيةً للحظة ألم بطني، وذكريات الأمس، وغموض الغد. ثم أعود إلى مكاني قرب أمينة، التي تكون قد غفت بلا وعي. أغمض عينيَّ وأهمس:

بسم الخالق العظيم... يا ملجأ، يا ملاذ... يا ملك طاووس. احفظ أمينة واحفظني بحمايتك. ارفع عنا الخطر، وأعدنا إلى السلام والأمان... آمين.

أستيقظ على صوت همسات قلقة عند باب الملجأ. ضوء الفجر بالكاد يتسلل من شبابيك فقدت زجاجها، رمادي، خافت، كوجه يومٍ لا يريد أن يبدأ. ثلاثة رجال يدخلون ترافقهم الطبيبة الليبية، يجرّون حمّالة صغيرة فوقها جسد مغطى ببطانية باهتة. لا نحتاج أن نسأل من يكون، ولا ما الذي حدث له. الموت هنا ليس غريبًا، لكنه يبقى في كل مرة مؤلمًا، وكأنه يقع للمرة الأولى دائمًا.

أنظر إلى أمينة، أراها مستيقظة تحدّق نحو الحمالة دون أن ترمش، يدها مشدودة على صدرها في محاولة تعتقدها لازمة لمنع قلبها من القفز. تقول دون أن تلتفت إن علينا مغادرة المستشفى بأي طريقة.

أتمتم بصوت بالكاد يخرج مني: لكنك ما زلتِ متعبة.

يتردد عقلي بين رغبتي في تصديقها، وخوفي من أن تنهار بين يديّ في منتصف الطريق. يهتز داخلي مثل نافذة تضربها الريح، لكني لا أجرؤ على الاعتراض أكثر.

تهز رأسها بعناد متماسك، وتجيب أن الأطفال قد خرجوا، وأن جرحها يمكن أن يشفى.

أنظر إليها طويلًا، من عينيها إلى عينيّ. تبدو أنها تنتظر أن تسمع مني كلمة، لكني لا أقول. وبدلًا من أن أتكلم، أروح أتحسّس بطني. الألم هناك، ضعيف لكنه مستمر، مثل همسة لا تريد أن تختفي. أفكّر بكلام الطبيبة، بتلك الجملة: قد تفقدي حياتك.

أخاف. ليس من الموت، وإنما من فكرة أن أُجبر على الاختيار بين حياتي وبين شيء لم أرده أصلًا. أهمس إلى نفسي: في الحرب، تأتي الخيارات مشوّهة، ولا أحد يملك رفاهية القرار.

قرب الباب، تبدأ أمينة تجمع بعض الأغراض: قارورة ماء، بطانية، وشالها الأزرق الداكن. ثم تلتفت إليّ وتقول: پيريڤان... علينا التحرك قبل الظهر.

أنظر إليها، ثم إلى من حولي، شابة ما زالت نائمة قرب الجدار، وإلى المرأة العجوز التي بالكاد تتنفس، وسؤال يتضخّم في صدري: هل آخذ الجنين معي؟ أم أدفنه معي في رماد المكان؟

.....

الجدران في بيت أمينة صامتة، تنصت في جميع الأحوال. تنهض من مكانها تقلّل من ضوء الفانوس بعد أن تهدأ أصوات الرصاص في الخارج، وتصب كأسين من شاي النعناع، رائحته تعبق في الجو. أجلس إلى جوارها على الأرض قريبًا من النافذة، نظري يتعلّق في الفراغ. بطني، التي بالكاد تبدأ تنتفخ، تصير عبئًا فكريًا أكثر مما هي

حملًا جسديًا. أتحسّسها بين الحين والآخر، لا حبًا بل حيرة، ولا يزال صدى صوت الطبيبة الليبية يرنّ في رأسي: قد تفقدي حياتك.

تقول أمينة بهدوء وهي تصب الشاي إنها سألت الطبيبة من بعدي، فأجابتها بالتفصيل، وإنها فكّرت أن الطفل قد يكون فرصتي الثانية.

أنظر إليها، أبتسم بعينين مرهقتين وأقول: هذا الجنين... لا يحق له أن يُولد. ليس فقط لأنه من غير ديني، بل لأني لا أعرف له اسم أب، ولا ملامح، ولا حتى أيهم تركه في داخلي. هو ليس خطيئة، أنه غصّة. كيف أربي شيئًا جاء من كل هذا الظلم؟

تمدّ أمينة كوب الشاي، تجلس في المقابل وتقول إن دفن الطفل بسبب وجعي ليس عدلًا، وإنني لم أكن سببًا في وجوده. كنتُ ضحية، وهو أيضًا في الحقيقة ضحية.

أصمت، أبقي نظراتي معلّقة على بطني، بينما تتابع، وفي كلماتها مسحة طرافة تحاول بها تلطيف الأجواء: «أعلن إنا، أمينة، قراري الرجوع إلى الدنمارك، وأني سأتحمّل نظرات الناس وحكم الدولة والاعتراف علنًا بأخطائي في العمل بميدان الجهاد والتحول عن ديني، وأقر بكامل قواي العقلية، الاستعداد لتبنّي الطفل إذا لم تكن پيريڤان أمه الحقيقية مستعدة لتربيته، وأني سأربيه بطريقة مختلفة، وسأقول له الحقيقة عندما يكبر، لأن من حقي أن أعطيه فرصة، ومن

حقه أن يعرف الحقيقة.»

تنمّل أصابعي، أشعر بشيء غريب يشبه الدفء، خوف يتداخل معه خيط من الراحة. أسأل: كيف أربيه وأنا لا أريده؟ وكيف أتركه، وفيه نصف مني؟

تجيب بهدوء مطمئن: قد لا يكون هناك حب في أول الطريق، لكن الأكيد أنه ينمو ويكبر كلما سرنا وسطه بشكل صحيح.

نسكت قليلًا. الليل من حولنا يكتظّ بصوت بعيد لانفجار لم يعد يهدّد صحونا. أضع يديّ على بطني وأهمس دون أن أرفع رأسي: لن أقتله... ولن أتركه في الخراب. ولكن، إن عجزتُ عن إكمال الطريق، أو متُّ، فأنتِ ستأخذينه وأمانة أن تقولي له إني حاولت. حاولت، لكني تعبت.

تقترب مني، تمسك يدي المرتجفة بحرارة، تسندني من الانهيار، وتنطق بكلمة قصيرة لكنها أثقل من كل الكلام: أعدك.

وهكذا، ولأول مرة، لا أشعر أني وحدي.

في تلك اللحظة، ترتخي يداي كمن يحمل صخرة، يسقطها فجأة. دقات قلبي التي ظلت تضرب صدري تخفّ قليلًا، تصير أهدأ، تجد لها إيقاعًا آخر غير إيقاع الخوف. أشعر أن جسدي لا ينهار وحده في الفراغ، إنه يستند إلى شيء آخر غير ذاته.

يتسرّب دفء غريب من أصابعي إلى جلدي، يصعد في عروقي

ببطء، ويمتزج مع رجفة خفيفة لا أعود أقاومها. دموعي قطرات صغيرة تنفلت مثل ارتعاشات الضوء حين تنكسر على زجاج النافذة. أتركها تسيل، لا أمسحها، لتشهد أخيرًا أنني لم أعد وحدي.

أنظر إلى أمينة، وأرى في عينيها ما يشبه مرآة متعبة لكنها صافية، تحاول أن تقول إن هذه الحياة، رغم قسوتها، ما زالت قابلة لأن تُمسك من طرف خيط واحد، ولو بخيط ضعيف. أعاود مسك بطني بخفة، أحس أن الحمل الذي كان غصّةً خانقة يصير شيئًا محتملاً، ربما حتى قابلاً للعيش، إذا لم يكن من أجلي، فعلى الأقل من أجل الوعد الذي انغرس بين يديّ ويديها.

خارج البيت، يبقى الليل متوترًا، تثقبه أصوات متقطعة لانفجارات بعيدة. لكن داخله، في تلك الغرفة المظلمة التي تعبق برائحة الشاي شريكنا الدائم في الجلوس، يكون هناك سكون آخر، سكون أرض صغيرة آمنة وسط العاصفة. أهمس، همسة خافتة لا تخرج بسهولة من بين الشفتين: أمينة... ربما لا أملك بعدُ أن أحب هذا الكائن في داخلي. لكنني الليلة فقط... صدّقت أنني لست وحدي.

لا يطول ذلك السكون. صرير الباب يشق الصمت، والفانوس المعلّق يرتجف حتى يخال للناظر أن ضوءه يريد الهرب مثلنا. يدخل صبيّ بالكاد يبلغ الخامسة عشرة، غبار الطريق يلتصق بملابسه، وعرق الخوف يلمع على جبينه. بين يديه بندقية أثقل من

ذراعيه، وفي خاصرته جرح يتسع، يختلط فيه الدم بالتراب. يقول وهو يلهث: إنهم خلفه، يريدون قتله، وإنه يريد أن يختبئ.

ينعقد لساني ولسان أمينة، لا ندري كيف نرد. كل ما سمعناه في هذه السنين عن الحلال والحرام، عن الطاعة والعصيان، يقف أمامنا متجسدًا في هيئة صبيّ يتأرجح بين قاتل وقتيل. يتنفس بارتباك، عيناه تفران من نظراتنا، تبحثان عن فتوى تُنقذه.

تقول له أمينة بصوت لا يخلو من تحدٍ ممزوج بالدهشة: كيف تختبئ عندنا ونحن نساء؟ وأنت من جنود الخلافة! أليس هذا حرامًا في شرعكم؟

يحدّق بنا بعينين زائغتين، يتبخر الجواب مع أنفاسه، ثم ينهار جالسًا، يضغط على خاصرته يحاول سد فوهة الحياة الهاربة منه.

الموقف يبدو مضحكًا ومبكيًا في آن: أن أولئك الذين حرّموا علينا أبسط تفاصيل الحياة، لا يتردّدون في طرق أبوابنا حين تداهمهم الضرورة. يرون زيارتنا عورة، والجلوس معنا رجسًا، لكنهم إذا نزفوا أو جاعوا أو تاهوا، لا يجدون ملجأ سوى بيت امرأة.

أمينة تتبادل معي نظرة سريعة كل شيء فيها واضحًا: لو تركناه ينزف هنا سيموت، وربما يجرّ معه الويلات. وإن أسعفناه، سندخل في خطيئة أعظم من منظور القادمين الجدد. تلك اللحظة، لا يعود الشرع ولا الخوف يهمّ، المهم إنسان يتفتّت أمام أعيننا.

أحضر الماء والقطن، وأغسل جرحه. يعض على شفته حتى يكاد الدم يخرج منها، لكني أسمع أنينًا خافتًا رغم محاولته الصمت. بعد أن أضمّده، أناوله بعض الطعام. لا يأكل أول الأمر، يتردّد، ثم يستسلم للجوع ويأخذ اللقمة كمن يبتلع ذنبه معها.

نشير عليه أن يخلع ملابسه الجهادية، فيخلعها عن جسده واحدة بعد أخرى، أتخيلها جلد آخر يلتصق به، أثقل من جسده النحيل. أجمعها وألقيها في النار التي تشتعل في فناء الدار، أتخيل أني أودّع معها أشباح المدينة التي التهمتها الحرب. أعطيه ملابس قديمة كان زوج أمينة قد خلّفها وراءه.

ذلك المساء، يبدو لي أن التناقض ليس بيننا نسوة وبينه رجل فقط، وإنما في عقله هو أيضًا: محارب يجرّم وجودنا ثم يبحث عن خلاصه بين أيدينا، فتى يرفع سلاحًا باسم الحرام ثم ينجو بالرحمة التي حرّمها على غيره.

يظل جالسًا في زاوية الغرفة، يحدّق في ألسنة النار التي تلتهم بزّته العسكرية، تحرق جزءًا من ماضيه لا يريد أن يعترف به. لا ينطق بكلمة، ولا نسأله شيئًا في بيت يحبس أنفاسه بانتظار ما سيفعله حين يهدأ النزيف ويستعيد بعض قوته.

في تلك اللحظة أشعر أن مصيره ليس بيدي، ولا بيد أمينة، ولا حتى بيد من يطارده. وجهه نصف غارق في الظل، ونصفه الآخر يلمع

بضوء الفانوس المرتجف... وجه طفل وتعب رجل، بريء ومذنب في آن واحد.

لا أدري إن كان سيخرج من بابنا لينجو بنفسه، أم سيعود في الغد ليطرق بابنا بسلاحه. كل ما أعرفه أن صورته تبقى عالقة في عيني: صبيّ بين موتين... موت لو تركناه، وموت لو عاد.

***

(١٥)

الدخان الذي يتصاعد من الجهة الشرقية، كثيفًا، رماديًا، يعكس احتراق المدينة من الداخل. على الزقاق الضيّق قرب المنزل، تُسمع وقع خطوات عسكرية منتظمة، ليست كخطى داعش... وليست أيضًا مطمئنة. تطلّ أمينة من خلف الستارة، ثم تقول بلهجة قصيرة: وصلوا... قسد.

أسألها دون أن أنهض، إن كانت مطمئنة، فتهز كتفيها وتقول: إنها مطمئنة لأنهم ليسوا داعش... لكنها قلقة، لا تثق في أحد يحمل السلاح، ويدعي أنه قادم لبناء السلام أو لأغراض التحرّير.

أنهض ببطء، تسبقني بطني التي أضحت تبرز بالتدريج، خفيفة لكنها واضحة. أشعر في داخلي حركة خفيفة من روح صغيرة تضرب جدارًا لتقول أنا هنا، فيرتعد قلبي.

قبل أسابيع فقط، كنت أراه ثقلًا زائـدًا، والآن أضع يدي عليه كل ساعة، أعدّ نبضاته، أخاف أن تخفت فجأة، أو أن يخطفه قنّاص مجهول كما فعلوا بنساء بينهم حوامل في السوق القديم قبل أسابيع.

في الخارج تدوي هتافات: «تحيا قوات سوريا الديمقراطية.» تتبعها رشقات نارية في الهواء. نبقى في الداخل يهرسنا القلق.

تقول أمينة: أتعرفين ما هو الجنون؟ هؤلاء ليسوا دولة، وأولئك ما كانوا دولة، وأنا وإياك وكثير مثلنا ليس لنا دولة. حتى لو حملنا هويات وعرضناها لأيٍّ منهم، فلن تعني شيئًا غير أننا نجونا من مجزرة وننتظر أخرى.

أنظر إلى الستارة التي تهتز مع الهواء، إلى المكان الذي تخيّم عليه الفوضى، وإنوه الى أن شيئا في داخلي يتغير... لم أعد راغبة بالموت لأن في أحشائي مخلوقًا يريد العيش.

تنظر إليّ أمينة طويلًا بملامح متعبة، وشفاه شاحبة، ومع هذا تبتسم وتقول وما ذنبكِ في هذه الدنيا؟ خُلقتِ أيزيدية. أما أنا فذنبي كبير، لأني صدّقت أوهامًا يصعب تصديقها، وغيرت معتقدي لاعتبارات انفعالية، وغامرت بوجودي.

يدق الباب فجأة. تتجمّد أجسادنا لحظة. بسرعة تسحبني أمينة خلفها، وتفتح قليلًا. رجل بزيّ عسكري لـ«قسد»، ومعه امرأة تفتش البيوت. يقول: لا مبرر للخوف، جئنا لنحرر، لكننا بحاجة إلى التأكد من عدم وجود إرهابيين أو إرهابيات يختبئون. إن غالبيتهم فرّوا من المواجهة واتجهوا للاختباء بين الناس.

تتقدم أمينة بحذر، لتعبر عن غبطتهما امرأتان تعيشان وحدهما، وليس بينهما رجل، وان التي أمامهم حامل وتعاني بعض الآلام.

تنظر المرأة إليّ للحظة، أشعر أن نظرتها تخترق ملابسي وتفك

عقدة الخوف في داخلي، تضع يدها على بطني وتقول سلامتك، خذي حذرك، كثير من الأطفال ماتوا اليوم وهم في أحشاء أمهاتهم. القنّاصون من داعش لا يفرّقون.

أجيبها بالكردية أنا من شنكال، وهذه أمينة أيضًا عانينا محنة السبي معًا.

تضحك ضحكة منتصرة، وتربّت على كتفي، وتتمنى لنا السلامة، دون أن تُكمل مهمتها بالتفتيش. عندها فقط نتنفس الصعداء.

تغلق أمينة الباب ببطء، ثم تلتفت إليّ، ترى في عينيّ شيئًا غريبًا: مزيجًا من غضب، وشفقة، وانكسار. أخبرها ويدي تلتصق على بطني، أني أشعر بالخوف، من كل شيء: من الناس، من الغد، ومن نفسي، ليس من هذا الصبي نصف الميت.

تجلس أمينة قربي، تمسك يديّ كما اعتادت من قبل، عيناها مثبتتان في وجهي، تريد أن تدفع عني ارتباكي بقوة نظراتها، تقول: إن حياة من نوع آخر بدأت تتشكل داخلك، وإنك بدأت تفتشين لها عن مكان آمن، وتضيف ان هذا هو الفرق بينك وبينهم: أنت تحاولين حماية شيء نقي، وهم يخربون كل شيء قائم.

تمرّ أيام... ربما خمسة، تعمّ المدينة سكينة غريبة، كأنها ماتت دفعة واحدة بعد أن كانت تصرخ كل لحظة. أرى من النافذة رجالًا بزيّ عسكري يفتشون البيوت، يدخلون واحدًا تلو الآخر، يسألون عن

«النساء المجاهدات»، عن «الداعشيات»، عن «اللواتي ساعدنهم». بعضهن ينكرن، بعضهن يتنكرن... وأخريات يختفين خلف عباءات وحكايات مرتبة. أما نحن فنظل كما نحن، في حال انتظار.

يصل أولئك الرجال إلى بيت أمينة. يدخل اثنان وامرأة. المرأة شابة، قاسية الوجه، بعينين تعرفان كيف تفضحان الخوف حتى لو كان مغلّفًا بالصمت. تشير إلى أمينة: تبدو وكأنها تعرفها، يوم كانت مجاهدة على الجبهات، وربما معها صور لها أو فيديوهات. لا تنطق أمينة، بل تقف بهدوء وتقول:

- أنا أمينة ميخائيل، كنت ضمن مجموعات نسائية قاتلت مع داعش. دخلت بقراري، وسأخرج بقراري. لا أطلب العفو، أريد فقط نهاية لهذا الوهم والرجوع إلى بلدي الدنمارك.

يسجّل أحد الرجال شيئًا في دفتره، ثم ينظر إليّ ويسأل من دون تردد إن كنت متورطة، أجيبه همسًا وبثقة عالية: إن اسمي پيريڤان خدر من سنجار، لا أنتمي لأحد، وإنني كنت سبية عند داعش، تنقّل جسدي بين عشرات الرجال، وإنني نجوت فقط لأن أمينة أخفتني في الأيام الأخيرة عن أنظارهم، وحمتني منهم. يرفع الرجل نظره ويصدر الحكم:

- أنتِ حرة. قضيتك واضحة، لكِ أن تختاري: البقاء هنا، أو الذهاب إلى أي مكان تشائين. أما هذه، ويشير إلى أمينة، فهي أسيرة

وستُخضع إلى المحاكمة.

تقف أمينة تنتظر النهاية التي تعرفها، لكنها صامدة. وأقف أنا بمواجهته، وبإصرار وثقة أقول بلغة كردية متقنة: لن أتركها. هي من أبقتني حيّة. لا أريد الحرية إن كانت تعني ترك من أنقذني. خذوني معها كأسيرة... كمرافقة... لا يهم. المهم ألا تفرقونا.

يختلون الى بعضهم، ثم يشير أحدهم إلى مخيم الهول.

رحلة قصيرة... لكنها تبدو أطول من كل شهور السبي. مخلفات الحرب، الصمت الثقيل، قيد خفيف على معصم أمينة، لا يُفرض عليّ. أضع يدي فوق ذاك القيد لتخفيف وطأته متيقنة أن الرباط الحقيقي بيننا صنعه الخوف المشترك ويبدده التآزر المشترك.

نمر بطريق يعرف الألم جيدًا. جدران مهدّمة، أشجار محترقة، وأسماء مرسومة على الحيطان... أسماء لم يعد أحد يناديها. حتى أسوار المخيم، لا يسأل أحد في داخله لماذا جئت. أُسجَّل كـ«مرافقة» في ملف. أعرف، كما تعرف أمينة، أني لم أعد مجرد ناجية. أنا شيء آخر: امرأة، أسيرة، شاهدة، وبذرة نجاة تنمو داخل بطن يرفضها.

في الليل، أستلقي قرب أمينة على الأرض وأهمس: لو أنجبت هنا، هل سيكتب على شهادة ميلاده «الهول»؟ تجيب وهي تحدّق في السقف الشبكي بعينين ثابتتين، كأنها ترى ما وراءه: لا، سيكتب وُلد في حضن امرأة اختارت الحياة، رغم كل شيء.

لم يكن الهول سجنًا عاديًا، ولم يكن حتى يشبه مخيمات اللاجئين التي نعبرها في الرحلة. إنه شيء بين الاثنين: حبس بلا جدران واضحة، ونظام بلا قانون بيّنْ. نمشي بين الشوك والأسلاك والخيم الممزقة، مثل السير داخل كابوس لا يعرف إن كان سيوقظنا أم يبتلعنا.

في الزنزانة الأولى، تجلس أمينة إلى جانبي، يداها خلف ظهرها، وظهرها منتصب قد تظن أنها لا تزال في الخندق.

أما النسوة من حولنا، فطبقات من الحكايات المدفونة تحت عباءات سوداء، وعيون تلمع بالغضب أو الخوف أو الندم... أو لا شيء. إحداهن تحفظ أجزاء من القرآن وتصرّ على تصحيح تجويد الأخريات في الليل. أخرى تنظر إليهن كافرات، هاربات من الهداية، تشفق عليهن.

تنصحني أمينة تلك الليلة ألا أتطرّق إلى أصولي الإيزيدية، فبين السجينات عدوانيات يريّن في القتل حلًّا وحيدًا.

أبقى أراقب كل شيء بصمت، ويديّ على بطني. يتحرك الجنين بقوة، وبتحرّكه أشعر بكيانه دون ألم، أشعر به كوجود، لا كتهديد.

عند المساء، تمد أمينة غطاء الفراش المهلهل وتقول: پيريڤان... ما زال بإمكانك الخروج. قولي إنك كنتِ أسيرة. سيعيدونك إلى منظمة دولية أو يضعونك في برنامج عودة. لا تبقي هنا.

أنظر إليها، ثم أهبط بنظري إلى بطني التي صارت أكثر وضوحًا تحت ثوبي القديم، وأسألها عن هذا الذي بدأ يتحرك في داخلي.

تتأخر في إجابتها، تتنهد أولًا ثم تعترف أن هذا المكان يبلع كل الثقة، وأنها لم تعد واثقة من قوتها كما كانت تظن.

في الزنزانة المجاورة، يتناهى صراخ امرأة، أحد أطفالها مريض. لا طبيب هنا ولا دواء، ولا نافذة حتى للرجاء. أعود بالنظر إلى أمينة، فأجد دمعة خفيفة على خدها. أحاول أن أمسحها دون أن تراها، وأهمس لها أن نبقى معًا، إن خرجت سأخرج معها، وإن بقينا فسألد هنا... على هذه الأرض، ولو كانت مسمومة.

تمسك أمينة بيدي وتضعها على بطنها الفارغة، تريد أن تشاركني شيئًا لم يحدث لها قط، وتقول أنتِ لستِ وحدكِ، ولا هو.

الليل في المخيم بارد، والحياة أشد برودة. لكن في داخلي، شيء ما يبدأ يتوهج، ليس حبًّا، ولا يقينًا. إنه خوف ناعم من النوع الذي يتكون أحيانًا مع بدايات حياة متوقعة. ليلٌ خالٍ من الساعة، ومن الضوء، ومن اليقين. وألم المخاض فيه لا ينتظر تقويمًا.

أستيقظ على تمزق داخلي، موجة حارة تندفع من عمق جسدي، ثم ترتد مثل زلزال. ترتبك أمينة، تهرع تمسك يدي، تصرخ بلا صوت في الظلام: بيرو، اصبري، تنفّسي... تنفّسي.

تستيقظ في الزنزانة المجاورة ثلاث نساء. يقتربن ببطء. أولاهن

امرأة ترتدي خمارًا أسود يلف نصف وجهها، وعيونها تشع ببرود، تتكلم بطريقة وكأنها تعلن استيلاء لا فرحًا وتقول: ولادة؟ ما شاء الله... مباركة يا أختي. ندعو الله أن يكون ولدًا مؤمنًا يضيف إلى المجاهدين مجاهدًا بإذن الله.

أنا منهكة، لا أقوى على الصراخ الفاضح. العرق يبلل رقبتي، والألم يطحن الوركين. لكن امرأة أخرى تقترب من أمينة وتقول: إذا كان ولدًا لنسميه على اسم أحد الشهداء ليكون مباركًا. أقترح أبو بكر البغدادي مثلًا، أو سفيان المصري. إنها أسماء فيها بركة.

تردّ أمينة دون أن تلتفت: الاسم لم يُولد بعد، ولن يكون له علاقة بالموتى.

تقهقه امرأة ثالثة دون أن تنطق بكلمة.

عيناي مغمضتان، لكني أسمع. وفي لحظة خاطفة بين ألم وألم، أرفع رأسي وأصرخ بصوت مشوب بالوجع: أني إن أنجبت ولدًا فسأسميه رامي.

يعمّ الصمت. أقولها بقوة مشروخة، وبيقين حد السيف، وأضيف أن رامي أخي ضاع مني في الطريق، حملته وأنا أركض، ثم سقط مني ولم أجده أبدًا. لعلّي أنجبه من جديد.

تنظر إليّ أمينة بدهشة ممزوجة بالدموع، تسند رأسي وتقول رامي: اسم جميل. اضغطي بقوة، دعيه يأتي.

تتراجع النسوة. إحداهن تتمتم أن لا يجوز تسمية الولد باسم كافر. فتردّ أمينة وهي تمسك منشفة من القماش القديم، تمسح بها الدم: وأنتِ؟ بأي اسم تدخلين جهنم؟

لا يجيبها أحد، وبعد دقائق، صرخة عالية تخترق المكان، صافية، وحيدة. يولد رامي. صغير، مزرق، لكنه حي. تأخذه أمينة، تلفّه، ثم تعطيه لي.

في الخلف، تجلس النسوة، جمهور هُزم في مسرحية لم يفهمنها. صامتات، يهمسن عن اسم «كفري»، وعن امرأة عاهرة تحاول أن تطهّر نفسها بالأمومة. لكني لا أسمعهن بوضوح. أسمع فقط صوت النفس الأول لرامي، وصوتًا داخليًا، قديمًا، كان ذات يوم صراخًا، ثم صار الآن همسًا: أنا حيّة، وهذا ابني. ليس منكم، ولن يكون.

.....

صباح ينقصه اللون، سماء تفقد ظل، وأرض رمادية تلتف على نفسها، لا تريد أن تعرف من يمشي فوقها. في الزاوية البعيدة من العنبر، أحمل رامي الملفوف ببطانية مهترئة، أضعه على صدري، درع أحميه ويحميني، وإلى جانبي أمينة، بحقيبة بلا سحاب، مملوءة بأشياء لا قيمة لها إلا في المنفى: بقايا حليب منتهي الصلاحية، ملابس طفل متسخة، صور ممزقة.

تفتح شابة برتبة ضابط من قوات سوريا الديمقراطية الباب

الحديدي، تقول بلهجة كردية صارمة: أمينة ميخائيل؟ پيريڤان خدر؟

نومئ بصمت، فتتابع: تم التأكد من جنسيتيكما. لا توجد بحقكما مذكرات اعتقال، ولا تهم بارتكاب جرائم إرهاب. سيتم نقلكما إلى المخيم. هناك لجان أوروبية وعراقية ستراجع وضعكما لاحقًا.

ألتفت نحو أمينة، أسألها بعيني إن كان المخيم يعني الحرية. لكنها، التي تتذمر منذ أيام، تجيب أن في المخيم على الأقل سماء مفتوحة.

في الشاحنة، عشر نساء أخريات. بينهن من يرتدين نقابًا، ومنهن من خلَع التعب عنهن الحجاب واللهجة. صوت المحرك يعلو على الأفكار. رامي نائم، يحرك شفتيه كمن يمصّ حُلمًا من عالم آخر. أحَدقُ فيه، أحاول أن أتخيل كيف سيكون له مستقبل في مكان لا مستقبل فيه.

امرأة قرب الباب تقول بضجر واضح إن المخيم جحيم آخر، وإنه على الأقل في السجن كنّ يعرفن من هنّ. فتردّ أمينة بنبرة خافتة، لكنها مشبعة بعزم داخلي: أنا لا أريد أن أعرف من كنت. أريد أن أبدأ من هنا... من أي مكان فيه هواء حرية.

عند الوصول، يتبين أن المخيم محاط بسياج معدني مزدوج مثل حدود بعض الدولة التي لا أحد يعترف بها. أطفال يلعبون في برك

الطين، نساء يصرخن على بعضهن، علم أبيض عليه شعار الأمم المتحدة يرفرف في منتصف الخراب.

نمرّ على خيمة صغيرة للتسجيل، ثم إلى خيمة أخرى للفحص. أجلس أنتظر، ورامي على ذراعي. موظفة شابة، أوروبية، بإنكليزية ذات لكنة شمالية، تبتسم للطفل وتسألني:

"How old is he?"

تجيب أمينة بصوت واهن:

"Ten days."

تدوّن الفتاة شيئًا، ثم تنظر إلي وتقول:

"He's lucky to have you alive."

أسأل أمينة عمّا قالت الفتاة، فتجيب بأنها قالت إنه محظوظ أني حيّة. أبتسم وأقول لها أن تخبرها إنه محظوظ بأكثر من ذلك.

تنتهي الإجراءات.

تُخصَّص لنا خيمة مشتركة في الزاوية الشرقية.

ليلة المخيم الأولى تبدو مختلفة: ليست برَدًا خالصًا، ولا أمانًا صافيًا. لكن، ولأول مرة منذ ولادة رامي، أنام وأنا أحتضنه، دون كابوس بجدران رمادية تسقط عليّ وأنا أختنق أو صرخات غريبة تناديني للجلد. ولأول مرة، لا أسأل عن أبيه. على العكس، أبدأ أتخيل مدرسته، وأتأمل اسمه مكتوبًا على دفتر، لا على ورقة تحقيق.

أراه يكبر في شنكال. يركض في الحقول التي تعود وتخضر، يلمس سنابل القمح كما كنتُ أفعل وأنا طفلة. أسمع صوته يختلط بأصوات الأطفال الآخرين، يضحكون وهم يتسابقون نحو النبع، يغتسلون من غبار الحرب كأنها لم تكن. أراه يحمل حقيبة مدرسية زرقاء، يكتب فيها اسمه بخط واضح: رامي خدر، ثم يلوّح بها راية صغيرة.

أتخيله يفتح كتابًا في الصف، يقرأ عن الجبال التي تحرس مدينتنا، وعن المعابد التي تصمد مثل أرواح أجدادنا. في عينيه لمعة حياة جديدة، وفي وجهه ملامح تشبه الفجر بعد ليلة طويلة. أراه واقفًا على تلة قريبة، يرفع عينيه إلى السماء، يبتسم... وفجأة تتلاشى الصورة من أمامي، كأن ستارًا يسدل بلا إنذار. لا أرى ما يحيط به، لا أعرف إن كان بيتنا ما زال قائمًا كما كان، أو إن كانت الوجوه التي أحببت قد عادت. تبقى المساحة بيضاء، فارغة في عقلي، تنتظر أن تُرسم ملامحها:

هل سيمتلئ المشهد بالضحك، أم بالخراب؟

هل يكون له مستقبل كامل، أم نصف حلم فقط؟

***

(١٦)

الأوروبيون يبدأون زيارات متواصلة إلى مخيم الهول جماعاتٍ ولجانًا وأجهزة، يسبقهم التحالف الدولي والأمم المتحدة ودول أخرى تحت عناوين «نقل الرعايا» إلى بلدانهم. تحطّ اللجنة الأوروبية على قلوب النساء ماءً باردًا في عز الصيف. يدخلون بهدوء: ثلاث نساء ورجل، وجوههم تحمل التعب أكثر من السلطة، والتفاؤل أكثر من التشاؤم، يتكلمون بلغة ناعمة، تشبه الفرص الأخيرة.

أمينة تجلس أمامهم، وفي عينيها مزيج من ندم وإصرار، تتلعثم بالإنجليزية:

"I want to go home. To Denmark. I was wrong. I was... misled. But I want to live again."

تترجمها إحدى النساء: «أريد العودة إلى المنزل، إلى الدنمارك. أنا مخطئة، خُدعت، لكنني أريد أن أعيش من جديد.»

تُقدّم جوازها القديم، المغبَّر، جزءًا من حياة سابقة تريدها أن تُشطَب. تتحدث عن الماضي، عن القرار الخاطئ، عن السنين التي تمرّ وهي تتآكل من الداخل. تبدي اللجنة تفهّمًا مشروطًا، وتعد برفع قضيتها إلى الحكومة الدنماركية، وتخبرها أن الأمر قد يستغرق شهورًا.

ظلت عيناها معلّقتين برامي، تعلم أن اللحظة وُلدت من أجله. التزمت الصمت حتى مساء ذلك اليوم، وهي تقلب الشاي الرديء فوق موقد غاز صغير، تلتفت نحوي: قدّمي طلبك للجوء إلى الدنمارك، هم يصغون... لا تفوّتي الفرصة يا پيريڤان. فكّري برامي، هذه الأرض يتكالب عليها العالم أجمع، ليس لها مستقبل.

هززت رأسي ببطء، وأكدت بشكل واضح أن المستقبل هناك في سنجار، إن بقيّ منه شيء. أخي الصغير سُحب من بين يدي هناك. لا أريد الدنمارك... أريد الحقيقة.

تدخلت امرأة كانت تقلب الخبز على صفيح ساخن، أيزيدية تحوّلت إلى الإسلام في ظروف مماثلة، وأومأت وهي تقول: إنها صادقة وعنيدة، لا تُلحّوا عليها.

لاحقًا، أسجل إفادتي أمام لجنة عراقية جاءت لتفقد أوضاع العراقيين في المخيم. حكيت كل شيء، دون مواربة: عن السبي، الولادة، أمينة، الشقيق التائه، عن أرض لا أريد أن أموت قبل أن ألمسها مجددًا، عن وطن أود العودة الى ربوعه لأطمئن. وعدوا خيرًا.

تمرّ الأيام والشهور بطيئة تمرغ الوقت في الرمل. يجيء الجواب من كوبنهاغن: تمت الموافقة على عودة أمينة. التذكرة من إسطنبول، الموعد بعد عشرة أيام.

حين سَمِعت الخبر، دمعت عيناها ونوهت الى أنها ستؤجل السفر. لن تذهب إلا حين تراني عائدة أيضًا، بأي طريق اختار.

بعد أسبوع، جاء الجواب الآخر من بغداد: اسم پيريڤان مُدرَج على لائحة العائدين طوعًا. سيارة مخصصة ستنقل المعنيين من المخيم حتى الحدود العراقية، ثم إلى الموصل.

لم يكن صباحَ رحيل، ولا وداعًا... إنما اقتلاع. خرجتُ من الخيمة ببطء، روح تخرج من الجسد، فهبط الصمت كثيفًا، يشبه دخان الحرائق. انحنت أمينة على رامي، قبّلته في جبينه، ثم التفتت إليّ. مدت يدها، ترتجف وهي تمسح على رأسي، أمّ تودّع طفلتها. هَمَستْ بصوت خافت أكاد لا ألتقطه: لا تنسي أن ترسلي لي صورة عندما تصلين.

ابتسمت، أموّه بكائي وراء شفتين جامدتين، وقلت: سأنتظر منكِ أول صورة تقولين فيها إنكِ مخطوبة لابن الحلال.

ضحكنا معًا، ضحكة معلّقة بين خيوط من الدمع والرماد، ثم سرنا كلٌّ إلى جهة؛ أمينة نحو باصٍ مبرَّد يقودها إلى الحدود التركية ثم إلى مطار يبتلع المسافرين، وأنا إلى شاحنة صدئة تهتزّ بي نحو الحدود العراقية، إلى مكان لا أعرف له اسمًا، أعرف فقط أنّ عليّ أن أعود.

حلّ السياج بيننا، سياج لا يترك الماضي خلفه، يقف يلوّح لنا

من هناك، ثقيلًا يرفض الرحيل. أهو الوداع حقًا؟ أم أنّه... بدايةٌ من جديد؟

أجلس في المقعد الخلفي من السيارة الممهورة بنمرتها العراقية، وإلى جانبي رامي، طفلي البريء، قطرة ضوء في عتمة الطريق. تبدو لي الأرض من خلف الزجاج الجانبي وهي تتبدل، شريط حياة ينقلب من الهدوء إلى الصخب. أترك مخيم الهول، أخطو أولى خطواتي نحو حضنٍ افتقده طويلًا، لكن القلق يتملكني؛ كلما أقترب من الوطن، أشعر أن شيئًا في داخلي يُفتح أبوابًا قديمة تُصدر صريرها من جديد. وحين أعبر الحدود حيث تختفي العلامات، أدرك أني أدخل البلاد من هوائها، من غبارها، من تلك الرعشة في صدري. وفجأة تفيض مخيلتي بصورهم:

أبي جالسًا يقرأ في ظل شجرة التين.

أمي تغسل الثياب في الفناء.

أخي يركض حافيًا في الحقول.

لكن تلك الصور تتلاشى سريعًا؛ يحل مكانها الدخان، والرصاص، وصرخةٌ تشتعل في داخلي حين لا أجد أخي، والأبواب المحطمة، ورتل السبايا، ومن ماتوا في الطريق. كل ذلك يعود دفعة واحدة، كأن الذاكرة تنتقم من صمتها الطويل.

تتوقف پيريڤان عن الكلام، تغمض عينيها، وتضغط على يد شيرين

بقوة، تحاول أن تبقي هدوئها على حاله. تسألها شيرين بقلق: خيرًا، ما بكِ؟ فتهمس: أنهكتني الذكريات التي ظهرت دفعة واحدة.

تربت شيرين على يدها: دعينا ننام... الفجر اقترب، والصباح رباح كما يقولون.

ترد پيريڤان: علّمتني سني السبي أن لا أثق في الآتي... وأن أكمل ما بـدأت... حين تصل السيارة مشارف الموصل، لا أجدها كما تخيلتها في أحلامي. تبدو المدينة منهكة، نجت توًّا من موتٍ بطيء، لكنها ما زالت تتنفس. وهذا ما يخيفني.

نصل إلى مخيم يُقال له «الأمل». أي أمل يقصدون؟ لا أعرف بعد. لا أعرف إن جئتُ هاربة، أم عائدة. هل أبحث عن شيء؟ أم أدفن شيئًا أخيرًا في قلبي؟

في تلك اللحظة، أدرك أن عليّ مواجهة الأسئلة التي تطاردني:

ماذا سأفعل الآن؟

هل أكون شاهدة فقط... أم فاعلة؟

هل أداوي جراحي... أم أبدأ بمداواة جراح الآخرين؟

لا أطيق أن أبقى ضحية.

أدخل المخيم شبح يمشي على قدمين، لكن شيئًا في داخلي يصرّ: إن لم أتحرك... سأختفي تمامًا. فأغمس نفسي في حياة المخيم كما يغرق المرء ليتعلم السباحة. أساعد في كل شيء: توزيع الخبز،

تنظيم الصفوف، كتابة القوائم. شيئًا فشيئًا، يصير اسمي معروفًا في كل خيمة.

ثم تأتي المنظمات الدولية. يبحثون عمّن يفهم الناس، من يتكلم لغتهم، من يعرف الألم. أعمل معهم مساعدة اجتماعية، ومترجمة من العربية والكردية بلهجتها الأيَزيدية، بأجر بسيط يكفيني لأشعر أنني أستعيد نفسي. أعود إلى المدرسة مثل العودة إلى الأزمنة الممزقة. أدرس ليلًا، وأعمل نهارًا، وأتقدم لامتحان المتوسطة، ثم الثانوية خارجي. حتى المدرسات يبدأن يناديننني: «الأمل الصامد.»

أما رامي، فيكبر أمامي، شجرة تنجو من حريق. يقترب من عامه الثالث، ويبدأ يسأل أسئلة لا أعرف لها جوابًا: لماذا لا نذهب إلى المدينة مثل أولاد التلفاز؟

لماذا لا نعيش في بيت مثل الآخرين؟

أين أبي؟

في الأثناء، تنتشر قصتي وتفاصيل السبي في أرجاء المخيم كالوشم الثقيل. لكنني لم أعد أخجل منها، ولا أرغب في التوقف عندها. وإن لم يواجهني أحد بها، تكفي نظرات العيون لتقول كل شيء. وكلما أقدّم طلبًا للخروج من المخيم، أرتطم بالحائط ذاته: من يتكفّل بكِ؟

ذلك هو السؤال الذي لا أجد له جوابًا. الشرط قاسٍ: لا خروج من

المخيم إلا إن يحملني أحد على اسمه. وأنا... لا أريد اسمًا جديدًا. أريد اسمي أنا. أريد أن أخرج باسمي، لا كعبء، بل كشخص. لهذا أبقى كما أنا، وحيدة بين الحالات المستثناة.

النسوة اللواتي كنّ زوجات لإرهابيين يخرجن واحدة تلو الأخرى. تكفلهن العشائر، أو يغضّ المجتمع الطرف عن أحوالهن. آخرون ممّن «تابوا» أو انقلبوا على داعش يُرسَلون إلى ذويهم، ويُعرضون على المحاكم، بعضهم مستعد أن يدفع حياته مقابل نهاية واضحة. أما أنا، فالحالة الوحيدة التي لا تجد لها خانة. لا أحد يجرؤ أن يكفل امرأة أُغتصبت وأنجبت طفلًا يجري في عروقه دم من غير قومها. أصير أفتش عمن يضعني في جملة مفيدة: هل أنا ضحية؟ هل عار؟ هل شهيدة مؤجلة؟ أم لعنة مرمية على أبواب المخيم؟

إلى أن يأتي ذلك اليوم باقية في يأس صارم، وفجأة يحلّ الوزير زائرًا بكامل أناقته، يريد أن يثبت للعالم أن حكومته تعمل على «تصفية المخيم»، وإعادة النزلاء بكل أشكالهم إلى مناطقهم، ليتكفّل بهم ذووهم، حتى يقدم إنجازًا نظيفًا على طبق من الكلمات.

يبدأ الندوة. يدعو ممثلي المنظمات الدولية، الصحفيين، وبعض الأهالي من النزلاء. يتحدث عن «العودة الكريمة»، عن «إعادة الاندماج»، عن «تحقيق المصالحة»، وعن العدالة الإلهية. لكن كلماته تطير في الهواء، ولا تلامس التراب الذي أمشي عليه.

أقرر أن أفعل شيئًا. أسحب رامي إلى جانبي، أقبض على يده الصغيرة، وأتقدّم إلى المنصّة مخترقة جدران الصمت. تتوقف عليّ كل العيون. الوزير نفسه يرتبك. وبحركة سريعة واثقة أدير وجهي صوب الجميع وأقول: اسمي پيريڤان خدر. عمري الآن عشرون عامًا. كنت في العاشرة حين اختطفوني. سُبيت، واغتصبت، وبِعت، وعشت ما لا يجرؤ أحد منكم على تخيله.

أرفع يدي، أشير إلى رامي: هذا ابني. لم يختر أن يُولد في سجن، لكنه وُلد. وأنا، لم أختر أن أُحبس هنا، لكنني حُبست. لم أشأ أن أحبل... فحبلت.

أتقدّم خطوة، فتهتز الأرض تحت قدميّ، لكن صوتي يبقى صلبًا، لا يرتعش: أعمل. أدرس. أربي طفلي. لم أرتكب جريمة. على العكس، ارتُكبت في حقي كل الجرائم الموصوفة بالقبح الإنساني.

أرفع رأسي وأسأل: أليس من الإنصاف أن أخرج؟

أليس من حقي أن أعيش باسمي، لا بظلّ ما فُعل بي؟

يصمت الجميع. يلتفت الوزير إلى آخر على يساره، ثم يسأل بنبرة رسمية تحمل شيئًا من التعالي، كأنه يريد قطع النقاش: ماذا تريدين يا پيريڤان؟

أنظر في عينيه وأجيب بثبات: أريد الحرية. أريد العودة إلى مدينتي سنجار، إلى تراب أمي وأبي... لأبكيهم هناك. ومن

هناك أبـدأ. أنـا لا أطلب صـدقة، أنـا أطالـب بحقي كـامرأة عراقية سُلبت إنسانيتها.

لا يرد، فأجول بنظري في وجوه الحاضرين، أرى في عيون ممثلي المنظمات الدولية شيئًا يتحرّك، كأن صوتي يخترق الجدران التي ظننتها أبدية. يسود صمت ثقيل يضغط على صدري، حتى يكاد الهواء يتوقف. ثم، وبلا مقدمات، يقول بصوت واضح يقطع السكون: أنتِ حرّة يا پيريڤان. من هذه اللحظة يمكنك الخروج إلى أي مكان تريدينه، وعلى مسؤوليتي الشخصية، ولك مراجعة مكتبي في بغداد وقتما تشائين.

تتجمّد اللحظة في قلبي. هل حقًا سمعت ما سمعت؟

أنظر إليه، أصيغ شكري بلطف: أشكرك، سيدي الوزير. لكنني لم أعد أعرف بغداد. كل ما تبقى في ذاكرتي هو بيت العائلة... وأجزاء من سنجار، متبعثرة مثل قلبي.

ثم تتقدّم سيدة أوروبية، تمثّل أكبر منظمة تُعنى بالمأسورات والناجيات، تمدّ لي بطاقة صغيرة، وكأنها تمدّ يدًا عبر العالم، تقول، وهي تبتسم بنبل نادر: پيريڤان، نحن نراكِ بطلة. لقد قررنا اختيارك كأشجع امرأة عراقية لهذا العام. وسنتشرف بدعوتك لإلقاء محاضرة عن معاناتك الإنسانية في كوبنهاغن، مقرّ منظمتنا. حددي الموعد الذي يناسبك وستجدينا في الانتظار.

هذا ما أريد من العالم أن يعترف بي: إنسانة صمدت وعاشت عشر سنين بين الوحوش وخرجت بعقل سليم. لقد أخرجتني هذه البطاقة من دور الضحية، وأدخلتني إلى حكاية سأرويها بنفسي.

أخرج من القاعة، ورأس رامي على كتفي، حاملة المستقبل... فوق أكتاف الماضي. وفي الطريق يسأل: ماما، ذاهبون إلى البيت؟ فأهمس له: نعم حبيبي... ذاهبون إلى البيت.

تُعدّل شيرين من وضعها على الفراش، يبدو أن الحديث يُعْييها أو يثير في داخلها الشجون. تسأل وهي تحدّق في زاوية الغرفة، كمن يخاطب الفراغ: كيف تحملتِ كل ذلك؟

أتنفس ببطء وأجيبها: ما كنت أتحمّل... في البداية كنت أعدّ الأيام، ثم توقفت عن العد. صرت أعدّ دقات قلب رامي. هو من جعلني أستمر بكامل طاقتي النفسية. كنت طوال الوقت أمشي بجسدي... وعقلي مربوط في شنكال، فيكم، في بقايا ذكرياتي.

.....

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حين تسير پيريڤان في الطريق الضبابي نحو دائرة النفوس في سنجار؛ تحمل حقيبتها الصغيرة، وأوراقًا متفرقة تجمعها من بين ركام البيت بصعوبة، وفي يدها الأخرى تمسك يد رامي، الذي يبدو ناعسًا، مطمئنًا بقربها. تذهب في رحلة غير عادية لتستعيد وجودها الرسمي، اسمها، حقيقتها... ووجود

رامي إلى جانبها.

تجلس على الكرسي المعدني، أمام موظف بوجه جامد وعينين خبيرتين تعبتا من القصص. تبدأ تحكي حكايتها وماذا تريد: كنت في العاشرة حين اختطفوني من سنجار...

تسرد بصوت هادئ وواضح، كأنها تؤدي طقسًا لا بد منه. تمر على التفاصيل كما يمر الإصبع على ندبة قديمة. وحين تنهي، يصمت الموظف طويلًا، يشغل نفسه بتقليب الأوراق أمامه ببطء، يتنحنح، ثم يقول دون أن يرفع نظره:

- ملفكِ بحاجة إلى مراجعة دائرة الأحوال المدنية في الموصل، مع شاهدين لإثبات الهوية.

تومئ برأسها، كأنها كانت تتوقع ذلك. ثم تسأله بخجل حذر:

- وماذا عن رامي وكيفية تسجيله؟

ينظر إلى الطفل، ثم يعيد نظره إلى الورقة في محاولة لتأجيل الجواب. يقول أخيرًا:

- وضعه معقّد جدًا... يتطلب قرار محكمة.

تسأل بصوت مشوب بالقلق:

- لماذا المحكمة؟

- لأن إثبات النسب يحتاج إلى وثائق رسمية أو اعتراف من الأب. وبما أن النسب مجهول... ومتنافٍ مع العرف ضمن ملتنا، فالأمر

معقّد. قد يستغرق سنوات، وفي النهاية قد تُرفض الدعوى.

تتجمّد ملامحها، وتقول بصوت منخفض:

- إنه ابني.

- أعرف، لكن هذا وحده لا يكفي.

- هو كل ما أملك في هذه الدنيا البائسة.

- الطريق الأسهل، وليس الأقصر... أن تودعيه ملجأً للأيتام، تتخلي عنه لفترة محددة، ثم تعودي لتقديم طلب تبنٍّ. على أن تثبتي كفاءتك: دخل ثابت، سكن مناسب، وقدرة على إعالته. كل ذلك تنظر فيه المحكمة المختصة.

لا تجيب مباشرة. تنظر إلى رامي وهو يرسم شيئًا على دفتر صغير، ثم تهمس بصوت مكسور:

- هذا ظلم... تضيفونه إلى ظلم عانيته سنين.

يكتفي الموظف بالرد، ببرود إداري يخلو من أي حيلة:

- هذه هي القوانين، وليس بيدنا شيء. نفعله.

تقف، وبصمت تجمع أوراقها، تشكره بلطف لا يشبه ما في داخلها، ثم تخرج.

الشمس في الخارج تبدأ تزحف على أطراف جبل سنجار. تستمر في السير بخطى ثقيلة، ورامي يحاول الجري أمامها، يضحك، ثم يعود إلى جانبها. تتوقف عند جذور شجرة الجوز إياها. تجلس،

وتضمّه إليها، ثم تهمس في أذنه:

- قالوا يجب أن أثبت أنك لي... لكن والله، لو عرفوا ما حدث، وكم أحبك... لطلبوا إثبات أنني لك.

تمر لحظة صمت، ثم تكمل، كأنها تقطع وعدًا لا رجعة فيه:

- لن أتركك، لا لملجأ، ولا لمحكمة. سأبدأ طريقًا آخر... طريقًا جديدًا.

تدخل بيت شيرين بعد الظهر، منهكة، وجهها أصفر، تحمل هموم الدنيا بأجمعها. تسألها بقلق عمّا جرى بشأن الأوراق. لكنها لا تُجيب، لا تذكر قصة الموظف، ولا طلباته المعقدة، ولا سني الانتظار لإثبات الأمومة. تُخرج من جيبها البطاقة الخاصة برئيسة المنظمة الدنماركية وتقول:

- اتصلي... أرجوكِ.

تلتقط شيرين البطاقة وتنظر فيها، ثم تطلب الرقم المثبت عليها. يجيء في الطرف الآخر صوت ناعم وواثق. هي السيدة نفسها التي التقتها في القاعة التي اجتمع فيها الوزير. تشرح ما جرى بالتفصيل، دون تردد. تستمع السيدة حتى النهاية، ثم تضرب معها موعدًا في اليوم التالي، عند مكتب المنظمة بالساحل الأيسر من الموصل.

وفي الصباح تحزم أمرها. تحمل حقيبتها الصغيرة، ورامي النائم على كتفها، وتهمّ بالخروج. تستوقفها شيرين، تسألها بخوف:

- إلى أين؟ فتجيب بيأس:

- هذا المجتمع الذي يرفض عدالتي، وأهلي الذين يشكّكون في أمومتي... سأختفي منهم. سأغيّر اسمي، هويتي، أصولي. وسأبدأ هناك... من جديد. أنا... وابني.

تتقدّم شيرين ببطء، تُعانقها طويلاً، بلا كلمة، كأن صمتهما يقول ما يعجز اللسان عن قوله. تهز رأسها في صدر پيريڤان، تحاول أن تحفر في ذاكرتها بعضًا من رائحتها، دفئها، ذلك الأمان الذي تمنحه رغم انكسارها. تسأل بصوت مخنوق:

- هل في هذا العالم شيء غير مخيف؟

فتجيب پيريڤان بهدوء عميق، كمن يستخرج قوتها من رمادها:

- نعم... الحب. والحق. وأنا أذهب لأسترد كليهما.

الشمس معلّقة في كبد السماء دون ظلّ.

تقف پيريڤان على ما تبقى من عتبة باب الأهل، تلتفت إلى الحيّ، إلى الأزقة، إلى الجدران التي تشهد انهيارها. تهمس، كأنها تودّع شيئًا عاش بداخلها طويلاً: وداعًا... لكل ما جرّحني، ثم تمشي، خطواتها ثابتة وطفلها نائم على كتفها، واثق بطريق لا يعرفه. وشيرين تظل واقفة عند الباب، تبكي بصمت، حتى تغيب پيريڤان في نهاية الزقاق.

- انتهت -

# المؤلف

ولد في قرية الجمجمة من محافظة بابل، خريج الكلية العسكرية العراقية، حاصل على بكالوريوس الآداب في اللغة الإنجليزية من الجامعة المستنصرية، ودبلومَي التربية العام والخاص من جامعة عين شمس، وشهادة الطيران التجاري من مؤسسة الطيران المدني العراقية، ودكتوراه في علم النفس السريري من جامعة بغداد. خدم ضابطًا في الجيش العراقي مدة خمسين عامًا، وتدرج من آمر فصيل وسرية ومساعد آمر فوج، إلى مدير شعبة الاستخبارات النفسية، ومدير البحوث والخدمات النفسية، ومدير عام التخطيط والمتابعة في وزارة الداخلية، ومستشار وزير الدفاع، وملحق عسكري في باريس، ومستشار القائد العام، وخبير العمليات النفسية في مستشارية الأمن القومي، ومدرّسًا لمادة علم النفس في الجامعة. كاتب له ثمانيةٌ وعشرون مؤلفًا، بينها خمس روايات.

# للمؤلف

١. مقدمة في علم النفس العسكريّ (مع مؤلفين آخرين) مديرية التدريب العسكريّ، بغداد ١٩٨٣.

٢. المعنويَّات بعد الحرب، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد، ١٩٨٩.

٣. المخالفة في الحياة العسكريّة، عواملها النفسيَّة وأسس التعامل معها، مديرية التوجيه المعنوي، بغداد ١٩٩٩.

٤. نوايا وحروب، دار العارف، بيروت ٢٠٠٣.

٥. أزمة المجتمع العراقيّ، دار الكنوز، بيروت ٢٠٠٣.

٦. دوامات المحنة، الدار العربيّة للعلوم، بيروت ٢٠٠٧.

٧. المعنويَّات في الميدان، نظرة في التقويم والقياس، مطبعة الرشيد، بغداد ٢٠١١.

٨. حصاد العاصفة، الجزء الاول، (ثقافة التضاد في عراق بين زمنين) دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١١.

٩. جراح الغابة، «رواية» فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠١٢.

١٠. وأد البطل، نهاية جيش وملحمة وطن، تموز للطباعة والنشر

والتوزيع، دمشق، ٢٠١٣.

١١. سيكولوجية المخالفة، دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.

١٢. تلك هي، «رواية» دار الجواهري، بغداد، ٢٠١٣.

١٣. الإجهاد القتالي في ظروف مكافحة الارهاب، وزارة الدفاع، بغداد، ٢٠١٣.

١٤. حصاد العاصفة، الجزء الثاني (التداعيات الإدارية والأمنيَّة لعاصفة التغيير في العراق)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٤.

١٥. الضغوط النفسيَّة للحرب، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد ٢٠١٥.

١٦. حفل رئاسي، «رواية» منشورات ضفاف، بيروت ٢٠١٥.

١٧. الشجاعة والخوف في المعركة، مركز الشرق للبحوث والاستشارات، بغداد، ٢٠١٥.

١٨. تيه الجنوب، «رواية» دار الجواهري للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ٢٠١٦.

١٩. سيكولوجية الضبط، دار ضفاف للنشر، الشارقة - بغداد، ٢٠١٩.

٢٠. حچاية التنگال، الجزء الأول: حكاية وطن هدمه الأبناء، دار ضفاف للنشر، الشارقة – بغداد، ٢٠١٩.

٢١. جمجمة بابل، سيرة مكان، دار الورشة، بغداد، ٢٠٢٠.

٢٢. حچاية التنگال، الجزء الثاني: سيرة وطن يحترق، دار مردوخ للطباعة والنشر والتوزيع، بابل، ٢٠٢١.

٢٣. حچاية التنگال، الجزء الثالث، الظاهر والمستور من حال العراق الجديد، دار ضفاف للنش، الشارقة – بغداد ٢٠٢٢.

٢٤. نقاط اختلاف، سيرة وظيفية في عراق ما بعد ٢٠٠٣، دار الدراويش للنشر والترجمة، كافورين، الماني، ٢٠٢٢.

٢٥. بقايا رواسب، سيرة ذاتية، مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع، بابل، ٢٠٢٣.

٢٦. حچاية التنگال، الجزء الرابع، سني التيه العشرين، دار مردوخ، الحلة، ٢٠٢٤.

٢٧. حچاية التنگال، الجزء الخامس، تحت غبار الشيطان، دار مردوخ، الحلة ٢٠٢٤.

٢٨. رحلة في رواق الزمن، لندن للطباعة والنشر، لندن، ٢٠٢٥.